الفصل الثالث

فلاحنا

« حياته ونفسيته »

قد يكون الفلاح في أمم أخرى أشقى من فلاحنا حالا ، وأتعس منه عيشا ، وأكثر منه شكوى ، وأرفع منه أنينا ، وأحر منه دموعا وأشد منه لوعة وأسى ، على حياة كلها جدب وفقر وبؤس وبلاء ، وجور واعتساف وضغط وحرمان ،

ولكن فلاحنا المصري يخيل لي أنه يكاد يكون أتعس فلاح في العالم اذا قيست أمته بالأمم الاخرى وروعى التناسب في حالات الحضارة والمدنية والنهوض ، ولقد نكون خطونا حقا خطوات واسعات موفقات مكللات بالفوز والنجاح في نواح كثيرة من نواحي النشاط الاجتماعي والانتاج القومي والسعي الاصلاحي ، ولقد نكون بلغنا في نهضتنا القومية الكبرى حقا شوطا مظفرا منتجا محمودا جعل اسم « مصر » يتردد ويعلو ويذكر في الساحات الدولية والهيئات العالمية ، كأمة لها من ماضيها الخالد ومجدها التالد وحضارتها الاولى بين حضارات العالم قاطبة ، ومن حاضرها الفاخر وبعثها الأكبر

واحيائها الشامل وجهادها المشكور الحي ، ومن آمالها في المستقبل الزاهر الجدير بماضيها العظيم وبتاريخها القديم ، الخليق بحيوات الشعوب الجديدة والأمم الناهضة الحية الشاعرة بوجودها وبكرامتها وبحرياتها وذاتيتها ، كأمة لها من ماضيها وحاضرها ومستقبلها ما يهيء لها أن تكون أمة الحكمة والحضارة والقوة والعظمة والخصب : أمة « السر » المستكن في جدران الاهرام ، المغيب في رأس أبي الهول ورمال الصحراء العظمى !

أقول قد نكون قد خطونا هذه الخطوات الواسعة المشكورة في جهادنا القومي وفي نهضتنا الكبرى ، وقد نكون حققنا جانبا من مثلنا العليا ونهضنا ببعض من أسس الاصلاح ودعامات الانتاج ، ولكن بكل أسف وبكل خجل يندي جبيننا ويوصم فخارنا القومي وكبرياءنا المصري ، أقول بكل أسف أننا ابقينا فلاحنا المصري حيث أبقاه الماضي السحيق العريق في القدم ، حيث أبقته العصور المظلمة السوداء وصنوف الحكم التي تقلبت عليه من رومان ومن عرب ومن فرس ومن مماليك ، وارتضينا له المنزلة التي اختارها له قياصرة الرومان ودهاقنة الفرس وحكام العرب وسلاطين آل عثمان ، في عصور الجبروت وعهود التعسف ودول الاستبداد !

فلقد نهجنا في حياتنا الخاصة والعامة الداخلية والخارجية منهج الغربيين ، وغيرنا في أساليبنا التفكيرية وفي مناهج بحثنا وألوان كتابتنا وطرق حديثنا وفي معاملاتنا الخاصة وفي حياتنا المعيشية ،

وفي وجهات نظرنا المختلفة الى الحياة والى العالم والى الانسانية جميعا ، وغدونا نرفض اليوم ما كنا نطمح اليه بالامس ونأمل في حياة جديدة وفي عصر جديد خليق بتفكيرنا وطموحنا ورقينا ونهوضنا ، بماضينا وبحاضرنا وبمستقبلنا أيضا ، وأصبحت لنا مثل عليا تختلف عن اخواتها فى الماضي باختلاف العصور وباختلاف الاستعداد ، وأصبحت لنا حريات مقدسة اكتسبناها بدماء شبابنا وبحكمة شيوخنا ، وسوّرناها بمهجنا وأرواحنا وقلوبنا ، وأنزلناها منا منزلة الدم في عروقنا والروح لجسمنا ، وغدونا نستمتع بعض الاستمتاع بحريتنا التفكيرية المقدسة السامية ! !

ولكن ! ولا بد لنا في هذا المقام من (ولكن) ! ولكننا تركنا ريفنا وفلاحنا ، تركنا هذه الناحية الكبرى من حياتنا فى خمودها وفي رقادها بين رمال الماضي يأتي على نشاطها وعلى حياتها ، تركناها ليد الزمن تعبث بها كيف تشاء وانى تشاء ، تركنا الفلاح المصري فخر مصر وسيدها في جهله وفي حرمانه من الاستمتاع بالوجود والشعور بالحياة ، وفي ألوان استبداده وصنوف تعسفه يعاني من كل هذا جميعا شر ما يعانيه انسان تألب عليه الوجود كله وحرمه حقوق الانسان ! وانه ليخيل لي أن العلة الأولى من تعس فلاحنا ، لا ! فى سبب تأخرنا كشعب وكأمة عن الأمم الاخرى وفي سبب الحياة التي نحياها الآن والتي نذوق مرارتها ونتجرع غصبا واكراها صابها وعلقمها ، انما هي « الجهل »

أنما هي هذا الظلام الذي يشمل كل وجودنا وينشر من فوقه ومن تحته ومن يمينه ومن يساره طبقات بعضها فوق بعض فلا نبصر شيئاً ولا نشعر بشيء ، أنما هي هذه القيود والأغلال والأصفاد التي في أيدينا وفي أرجلنا وفي اعناقنا فلا نتحرك الا في أبعاد مخصوصة وفي أوقات معينة وتعاليم محدودة .

هذه العلة هي مصيبة مصائبنا ، ونكبة نكباتنا ، هي السر فيما نحن فيه الآن وفيما نتحمل من ذل الاستعباد ونير الاضطهاد ومرارة الفاقة والحاجة ومسكنة الضعف ، هي التي تقفنا الآن مكبلين بقيودنا مكممين بكماماتنا ، أذلاء خانعين أمام من يتحكم فينا ويستبد بنا ويسوقنا الى ما يريد ، هي التي تجعلنا الآن عالة على العالم جميعا حتى في بصيص النور الشائع للامم قاطبة ، فلا نزال وسوف نبقى طويلا في حاجة الى الغرب ننهل من موارده العلمية ونتهافت تهافت الفراش على مدارسه وعلى جامعاته نحصل فيها ما نعجز عن أن نحصله في معاهدنا وفي جامعتنا ، والى أن ينقطع هذا السيل الجارف ، والى ان نستغني عن هذا الاستجداء ، فسنبقى عبيداً للغرب وللمستعمر وان منحنا واستردت الينا حرياتنا وحقوقنا المسلوبة المغصوبة ، والى ان تأخذ حياتنا التعليمية كلها الصبغة « المصرية » والطابع القومي الأقليمي فسنحني رءوسنا ذلة وخضوعا كلما ذكر لنا اسم « الغرب » أو الحضارة الأوروبية ! واليوم الذي يعترف فيه كل مصري من هذا « النور » الزاهي الشائع : والذي يتأفلم فيه العلم عندنا ويتخذ صبغة

القومية ، في هذا اليوم نشعر حقا ونؤمن حقا بأننا أمة محترمة مهيبة لها مجد ولها فخار ولها طابع خاص ، ونؤمن بأن لنا مقاما عالميا وصبغة دولية بحسب حسابهما في الهيئات الدولية وفي الجهات العالمية وبين الشعوب المحترمة !

لشد ما يستدرجني فلاحنا المسكين ! حرمته الحكومات المتعاقبة التي لا تعنى الا بأبهتها وبعظمتها وبجاهها وبكراسيها ، وحرمه الاغنياء القابضون على أموالهم بأيد من فولاذ ومن صلب ، وحرمته العصور الماضية السوداء ، عصور الحكم الاستبدادي في عهد المماليك والأتراك ومن اليهم من مستعمرين ومن مستبدين ، كل هؤلاء جميعا تألبوا عليه وحرموه حقه من النور الشائع الذي وهبه الله للعالم جميعا ، للانسان الذي خلقه فسواه وفضله على الخلق قاطبة ، حرموه هذا الحق المباح واتخذوا من انفسهم آلهة له يتصرفون فيه وبه كيف يشاءون وحيث يريدون ، يعطونه حين ترى ارادتهم العليا أن تعطى ، ويحرمونه حين تشاء هذه الارادات أن تحرم ! !

وسنحاول منذ الآن في السطور التالية تصوير حياة هذا الفلاح تصويرا جهد المستطاع ، ان لم يكن صادقا كله فلا شك أن فيه ناحية كبيرة من الصدق وجانبا عظيما من الحق ، وسنكون في هذا التصوير على خير وأضبط وأدق ما تقضيه الأمانة علينا ، ونستمد هذه الالوان لتصويرنا مما شاهدناه ونشاهده لا مما سمعناه أو نقلناه حتي نرضي ضميرنا والحق وحدهما !

يسكن فلاحنا في دار صغيرة من الطوب الاخضر الني، غالبا حيث لا يمر عليها شتاء غزير حتى تتشقق جدرانها وتتصدع أركانها وتميل جوانبها ، وسقف هذه الدار أو هذا الكوخ من القش أو من البوص في الغالب . ولذلك فهو مهدد في داره بالموت من جراء هذا التهدم والتصدع وهذا الأساس الواهي الضعيف للبناء ، وأولاده أيضا مهددون بالسقوط من عل في أي وقت ، وجميع أفراد العائلة مهددون في فصل الشتاء بوابل المطر حيث ترى فسحة الدار كأنها مجمع أوحال أو كأنها بحيرة ، فالماء وسط الدار وفي داخل الغرف أحيانا ويتساقط مدراراً من السقف بل ومن كل مكان ، ويلجأ المساكين الى الافران يصطلون ويستدفئون والسقف واكف والسماء ممطرة والطبيعة غضبى والوجود ثائر

ودار الفلاح تتكون من حجرتين أو من حجرة واحدة أو من ثلاثة على الأكثر اذا كان عدد افراد العائلة كبيرا أو عدد المواشي كثيراً ، واحيانا تضيق به رحبات الدار ، وفي هذه الحال تجده لا يرى مضاضة في أن يتخذ مضجعه هو وزوجه وأولاده بجوار مواشيه وحميره ، وقد يدفعه ويلجئه أيضا الى الاضطجاع بجوار مواشيه خوفه عليها من السرقة ، فلا يستريح وينهنأ حتى يناء بجانبها وتحت أرجلها أحيانا وذلك لأنه مهدد دائما من خصومه بالسرقة

وهذه الدار للفلاح المصري فخر مصر وسيدها تبنى على أحط قواعد الصحة فكأنه ليس ثمت من حكومة تشرف على صحة

أبنائها ، فلا عهد ولا وفاء ولا رقابة ولاعناية بهذا الانسان المسكين الذي يحمل هذا الاسم الكريم وليس له من مفهومه أو دلالته قليل ولا كثير ، ففي بعض الدور تكاد لا تجد نوافذ للدار وان وجدت فهي من الضيق بحيث لا ينفذ منها جانب كبير من الهواء الطلق الذي يصرف مافى الدار من عطن ومن هواء فاسد ومن رائحة كريهة ، وارتفاع الجدران واطىء جدا وكذلك سعة الحجرات ، ثم من المؤلم بل من المخجل بل من المبكى أن نومه وأكله ومتاعه وقرنه واستحمامه يكاد يكون أحيانا في حجرة واحدة ، فترى الرجل ينام بجوار زوجه ، وبجوارهما أولادهم ، وقد يكونون أحيانا في سن كبيرة ، واذا كان الصيف تغطي معظم اسطحة الدور في القرية بالنائمين وبالنائمات على القش او الحطب ، أما ماؤه الذي يشرب منه فحسبك منه الماء الراكد في الترع القذرة المليئة أحيانا بجيف الحمير والكلاب والقطط وما اليها ، بل لست أجد غضاضة فى القول بل ولا مبالغة وغلوا اذا قلت أن مواضع شربه أحيانا هي نفس مواضع شرب مواشيه ، وقد تكون مواضع تبوله في بعض الاوقات وفى بعض الأمكنة وذلك دون أن يشعر او يعرف ، يلجئنى الى تقرير هذه الحقيقة وهذا اللون من الوصف ومن التصوير حرصي على أن أصور ريفنا وفلاحنا كما نشاهده وكما نعرفه حتي يتشخص لنا الداء ليسهل علينا بعد ذلك الدواء ، وحتي يعرف من لا يعرف فلاحنا المصري أن هذا الفلاح غريب كل الغربة عن الحياة الانسانية

المحترمة الموفورة وعن الحقوق المباحة الموهوبة الممنوحة له من خالقه ، وهذا الواجب الذي أخذته على عاتق والذي اضطلعت بحمله هو الذي يضطرني ويدفعني الى أن أكون أمينا في التصوير وأن أغضب هذا اللون من التصوير بعض المكابرين الذين لا يريدون أن نصور عيوبنا وحالاتنا الحقيقية ونقائصها ركوبا للرأس وتعلقا بالغرور الكاذب والانفة الجوفاء ، ولقد حان الحين بأن نتدرع بالصراحة وبالشجاعة في الرأي وفي القول وفي التفكير في كل عمل من أعمالنا وفي كل ناحية من حياتنا ، تاركين الجبن والخوف لمن لا يعرف لنفسه قدرها ولا يحترم عقله ولا يعز وجوده ، تاركين للمزوّر وللغاضب وللمكابر ان يركب رأسه وان يسلك أي مسلك يشاء ، فلن نؤثر سخطه على رضاء الضمير ، ولن نلغي عقولنا ونخون الحق ارضاء لأنفة كاذبة ولمكابرة باطلة ! هذه الحياة النكداء الوبيئة المهملة القذرة هي السر أو هي العلة في تفشي الامراض بين فلاحنا المسكين ، وقديما قالوا : ان الوقاية خير من العلاج ، فاذا كان كذلك ففلاحنا أو أولو أمره هم المسئولون الى حد ما عن كثرة هذه الأمراض التي تفتك بصحته بل باليد العاملة النشطة المنتجة في هذا البلد ، ففضلا عن عدم قدرته أو عن عدم رضائه في أوقات كثيرة للتطبب وللعلاج فانه لا يعرف بل يستهين ويحتقر الوقاية وصنوفها ، وعلة ذلك كما قلنا قبل الآن هي جهله وعدم عناية أحد به ، وحسبك بأمراضه الكثيرة هذا العدد العديد من العميان في القرى ، ومن الذين تهددهم صنوف

الحمى المختلفة والملاريا والتيفوس والزلال والبلهارسيا والانكلستوما، وهذان الأخيران لا يكادان يفارقان أحدا في ريفنا بمقدار يختلف قلة وكثرة وقوة وضعفا .

وهو اذا مرض ألقاه أهله في الدار أو في القاعة ثم يجتمعون حواليه ويضايقونه بكثرة أنفاسهم وشدة لجبهم، ويعطونه كل أنواع الطعام الميسر لهم خوفا من أن يحرم لذة هذا الطعام فيدعو عليهم ويغضب منهم .

هذا ولو اشتد به المرض وثقل عليه، فكثيرا منهم لا يفكرون في طبيب يعالجه أو على الأقل يقول كلمة الطب فيه، فالطبيب كما لاحظت هو أعدى أعداء فلاحنا، والطب عنده يكاد يكون أمراً نكرا، وغاية سعيهم وجهدهم أن يكلوا أمره الى قدر الله المحتوم (وهو وبخته)

وهذا الاعتقاد الأعمى البالغ أقصى حدود العماية، والجهل بمعنى القضاء والقدر يكاد يكون علة مرضنا الاجتماعي وانحطاطنا المجموعي، وخصوصا عند فلاحنا

فاذا سألته : ما بالك لا تفعل هذا ؟ يبادرك بالجواب : « اللي مكتوب عالجبين حايكون »، فكأنهم يريدون من القدرة العليا المقدسة ان تحل لهم وتربط كل شيء، وأن تقدم لهم كل مرافق حياتهم وهم جالسون ناعمون فارغون على مصاطبهم وفي ساحات قاعاتهم وعلى جوانب ترعهم وفي حقولهم ! .

هذه « الاتكالية » العمياء التي ليست من الدين الحق في

شيء ، ولا من العلم في شيء ، تكاد تكون سر انحطاطنا الى الآن ، والعلة الاولى في تأخرنا في كل نواحي الحياة المحترمة الموفورة الكاملة ، في تأخرنا عن الأمم التي تعدو وتجري ونحن لا زلنا وراءها نزحف ونحبو ، يعتقد الفلاح والجاهل والذي لا يعرف لدينه حرمة ولا لعقله منزلة انهم غير مجبرين على العمل وراء أرزاقهم ووراء رفاهتهم ، ويعتقدون أن الله قد قضى فيهم قضاءه يوم ظهروا الى هذا الوجود بل قبل ان يظهروا ، فمن العبث واضاعة الوقت ومجاهدة المستحيل ، بل من الخروج على الدين وعلى صاحبه أن يعملوا في الحياة بما يوسع لهم من الرزق وبأن يغيروا هم وجهات حياتهم بأنفسهم بحسب أعمالهم وبقدر جهودهم

قال الله تعالى في كتابه الكريم : « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » وقال أيضا : « وأن ليس للأنسان الا ما سعى وان سعيه سوف يرى » . فترى هنا ان الانسان مسئول عن عمله وانه بنفسه يوجه نفسه بل ويكيف نفسه

نعم ! كل شيء في الوجود وفي الكون وكل ما على الارض وما تحت السماء وما في جوف البحار يذعن لأمر الله ولا يحدث ولا يتغير الا بارادته تعالى ، ولكن هذا لا ينافي مطلقا ولا يتناقض ونظرية السعي والعمل والكفاح في هذه الحياة التي نحياها ، لا يتناقض وقول صاحبنا « نيتشه » رسول الكفاح والقوة « لا أوصيكم بالسلم بل بالنصر ، فليكن كل عملكم كفاحا ، وليكن كل سلامكم

نصراً » أما علاقة تقدير الارزاق بالسعي وبالعمل فليس لنا أن نبحث فيها لأنها ليست من اختصاصنا كما يقول رجال القانون وعلمها عند ربي ، وكل ما في أيدينا وما في وسعنا وما يجب علينا ، أن نعمل وان نكد وان نكافح في سبيل العيش والحياة دون أن ننظر الى أي اعتبارات أخرى ،

والله تعالى أرأف بعبده الانسان من أن يخلقه في هذه الحياة آلة أو لعبة لا يسأله عن عمله كالقاصر أو كالمعتوه ، بل منحه ما يوسع حدود ذاتيته وما يعلي به كرامته ، وما يسأل به عن كل أعماله ويحاسب عليها حسابا عسيراً ، وهو لا يحاسب هذا الحساب العسير الا لأنه ترك له بأن يوجه حياته وأعماله كيف يشاء وحيث يريد

وكل هذا يتفق كما نرى وأبسط قواعد المنطق ، ويتفق اتفاقا تاما مع المكانة المحترمة العليا المقدسة ومع الغاية التي ارادها الله صاحب الأديان جميعا لدينه القويم السامي ، اما خلط العامة والجهال ومن في عدادهم هذه « الاتكالية » العمياء بالدين ، فليس هو الا أثر ومظهر قصور عقولهم عن الفهم وعجزهم عن تحمل آلام التفكير ، فتمحكوا بالدين شأنهم في كل شيء يجهلونه ولا يحبون أن يفكروا فيه ، واليوم الذي لا نخلط فيه بين الدين وبين أي ظاهرة في الحياة ونحدد للدين حدوده التي ارادها الله له ، واليوم الذي نعتز فيه بعقولنا ونحترم تفكيرنا ونري كل شيء في الوجود قد وضعه الله تحت أشعة العقل وتشريح التفكير احتراما للعقل ميزة الانسان الكريم ،

في هذا اليوم يبدأ شعورنا بوجودنا ، ونبدأ في خطواتنا الاولى في السعي وراء الحق والكمال ! ! !

وقد تعجب أحيانا لمعالجة فلاحينا أمراضهم بأنفسهم فيفعلون ما تتقزز منه النفس وتقشعر ، فماذا تقول في الكي بالنار المحرقة على الأبدان الحية وعلى الاجسام النضرة الطرية ، ماذا تقول فيما يسمونه « الخزم » هذه العملية القاسية التي يعالجون بها الحيوان والماشية ، ثم لا يأنفون أن يعالجوا بها الانسان أيضا ، وهذه العملية « الخزمية » هي خياطة الجسم بالأبرة أو « بالمسلة » والجسم حي لا مخدر ويعالجون بها معظم الامراض كرمد العيون وما اليه ، ويكاد كثير منهم لا يثق بطبيب لأنه في رأيهم مشعوذ ، ولأنهم يسيئون الظن بكل منتجات العلوم ولا يرونها الا بدعة أتت بها المدنية المتحذلقة ، ولأن الانسان لديهم ليس اشرف من الحيوان الذي يلازمهم ويعاشرهم ويناومهم أحيانا !

تكلمنا قبل الآن عن دار الفلاح في الغالب ورأينا كيف يعيش هذا المسكين هذه العيشة النكداء في عصر تقول أنه عصر النور والعرفان ، ولكننا لم نتعرض للدار من الداخل أو أن تعرضنا لها فلم نعرض لها الا لماما ولم نمر بها الا كراما !

اذا دخلت دار فلاحنا واحببت أن تتفقد معيشته وتتعرف كيف يعيش لا تجد لديه سوى جانبا قليلا من الأذرة او الشعير او القمح ان كان واسع المعيشة قليلا ، وهو يشتري حاجاته المعيشية

يبيع جزء مما عنده من غلال أو برسيم أو فول اذا عزت عليه الفلوس وكثيراً ما تعزبل وتندر !

أما قوته الذي يعيش عليه معظم الأيام فلا يزيد عن البصل والمش والجبنة والجرجير والعسل الأسود وصنوف الخلل ، أما البيض فيبيعه في الغالب ويضن على نفسه بأكله حرصاً على تحصيل واكتساب فلوس منه ولا يزال للآن في القرى من يضيء « المسرجة » بالزيت بدلا من الغاز ، حرصا على الاقتصاد في المعيشة البالغة أقصى مراتب الضيق ، أما البط والفراخ والأوز فكثيراً ما يبيعها وقليلا ما يأكلها ، فاذا جاء يوم « السوق » وهو يوم محترم مذكور أبصرت النساء على الحمير وأمامهن بطة أو فرخة أو ديك ثم يعدن بالسكر والشاي وما اليهما

وتتضح لك حالة فلاحنا المسكين الماديه جلية بيّنة ، وأنت تتعرف شعوره النفسي والابتسامة الوادعة التي تمر على شفتيه حينما تدخل عليه في داره فيسرع اليك ببشاشة وطلاقة ، ويقدم اليك أجمل ما عنده من حطام وأثاث : حصيرة تظهر عليها الجدة ! مسكين فلاحنا ! أقل شيء يفرحه لأنه فقير ولأنه تعس !

ومع هذا الفقر المدقع وهذه الحياة الضيقة التي كلها بؤس ونكد وحرمان ، مع كل هذا فأن كثيراً من فلاحينا ، من هذا الجيش العامل المنتج ، يتعاطى المسكيفات وأكثرها انتشاراً بينهم هو الدخان والشاي والأفيون والحشيش ، بعيدين عن عيون

الحكام وعن رقابة رجال الضبط والمباحث ، مسكين أيها الفلاح كل المصائب ألب عليك ، وكل البؤوس حليفة لك ! !

ومن المدهش والعجيب ان كثيراً منهم يؤثر أن يشرب الشاي أو يتعاطى الدخان أو الحشيش على أكله وأكل أولاده المساكين ، ولقد تراه عريانا وترى زوجه وأولاده يشكون مرارة الفاقة وذل العرى ، ومع ذلك لا يحرم نفسه أو مزاجه تعاطي هذه المكيفات ، متجاهلا كل هذه المصائب التي لا تنزل فرادى كما يقول « شكسبير » بل زرافات وجموعا ! !

أما عن جهل فلاحنا فهو طامته الكبرى وهو مصيبة مصائبه والعلة الأولى فى كل ما يعاني من ذل وحرمان وتعسف وارهاق ، بسيط في علمه الى أبلغ حدود البساطة الفكرية ، ولا يكاد يعرف شيئا ما عن هذا الوجود وذلك العالم ولا يفرق كثيراً بينه كانسان له وجود خاص وذاتية خاصة وبين الكون الذي يكتنفه ويحيط به ، فهو في هذه الحال الشعورية كالطفل يحسب نفسه والكون والعالم شيئا واحداً فالنفس هي الكون وهي العالم ، وحواسه تكاد تكون معطلة كل التعطيل ، وذلك لأن عصور الاستبداد التي مرت بفلاحنا ، ولأن تلك القوانين الجائرة وهذا النظام الجائر الفاسد الذي يسير عليه الفلاح مكرها مرغما ، كل هذه العوامل جميعا حرمته كل حق يمكن أن يستمتع به كأنسان له وجود وله كرامة ، وكلفته بكل الواجبات الجسيمة التي تقوم عليها مرافق حياتنا وعماد ثرواتنا ،

ثم عطلت حواسه حتى صدأ عقله وزال من عينيه — أو كاد — بريق النور والحياة والشعور ، وخلقت منه كل هذه العوامل انساناً ساذجا بسيطا ، لا يعرف شيئا في هذه الحياة الا التسليم الاعمى للقضاء والقدر ، والا الخضوع المشين المزري لرؤسائه وحكامه فأصبح يحني رأسه لكل رئيس ويستذل لكل سيد ، ويخضع خضوعا فاضحا لكل ظلم يقع عليه ، حتي كاد يتساوى لديه الظلم والعدل ، والحق والباطل ، بل النور والظلام !

وهذا الخضوع المشين للظلم وللجبروت ، وهذا الفقدان للشعور بالنفس ، وهذا الاستخذاء والذل وبيع الكرامة والجبن والخوف والرهبة ، كل هذا جميعا أفقده ارادته وسلبه كرامته ، حتي غرست في نفسه المذلة والهوان والضعة ، فأصبح لا يشعر بكرامة تهان ولا بعزة تجرح ولا بشرف يثلب ولا بحق يضيع ولا بحرمة تنتهك .

والشعور هو كل شيء فى هذا الوجود ، وأكثرنا شعوراً وأدقنا حساسة هو اشدنا تبجيلا وتوقيرا ، وأصحنا فهما للحياة ولما فيها من حسنات وعيوب ، وأكثرنا أيضا تعرضا لآلامها ولمصائبها ، وأن كان « ديكارت » قد قال « أنا أفكر اذن فأنا موجود ، فلقد عارضه جوستاف لوبون » بقوله « أنا أشعر ، إذن فأنا موجود »

فتلك المصائب العديدة التي تنزل بفلاحنا ، وتلك العوامل كلها في بؤسه وفي تعسه لم تكتف بان حرمته نور العلم ، ولا بان

وضعته هذا الوضع الجائر القاسي ، بل حرمته أيضا أن يشعر ، بل افسدت عليه قلبه وضميره وشعوره ، وتلك هي نكبة النكبات ، وتلك هي مصيبة مصائبنا حين نملك قلوبا وحين يكون لنا ضمائر ، وحين يكون لنا أعصاب وحواس وعواطف ، ثم نرى تلك القلوب مغلقة معطلة في حكم الميتة ، وتلك الضمائر وهذه الاعصاب والحواس والعواطف مهملة فاسدة ، وهذا الذي يعتدي على قلوبنا وعلى ضمائرنا ، والذي يفسد علينا مشاعرنا ، هو أكثر اجراما وأشد خطراً من هذا الذي يعتدي على جسومنا وابداننا بالضرب او بالتعذيب او بالحبس او ما اليها جميعا !

كل هذه العوامل جميعا كما قلنا ساعدت على فقدان فلاحنا شعوره بنفسه وبكرامته وبحقوقه وربّت فيه الجبن والخضوع والاستخذاء ، وجعلته يقبل يد ظالمه كما يلحس الخروف بلسانه اليد التي تمتد لتريق دماءه ، فأصبح لا يعرف الا رئيسه والعمدة والبيك المأمور وجناب المعاون وحضرة المحضر والباشا المدير كما ينعتهم .

والحكام والرؤساء وأولو الأمر يستغلون فيه هذا الجهل وهذه البساطة وهذا الفقدان للشعور وهذا السكوت الكريم والرضاء الجميل للذل وللهون ، فينزلون به كل ضروب الارهاق والظلم التي ترضي قسوتهم وتغذي اطماعهم ، ويسنون له ما يشاءون من قوانين المذلة والمهانة وهو بعيد كل البعد عن وضعها سواء بالطرق المباشرة

أو غير المباشرة ، فالمالك يمتص دمه ويهدده كل عام بالحجز على غلاله ومواشيه ومحصوله أو متاع داره اذا خانه الحظ — وليس له في تصاريف القدر وتوجيهات الحظ يد ولا أمر — وسواء محصوله أو هبط سعر القطن ، والحكومة تفرض عليه الضرائب العديدة كضريبة الخفر وضريبة الأطيان وضريبة مجالس المديريات ، ولقد يروعك هذا اذا علمت ان مجموع هذه الضرائب التي تفرض على الفلاح تقدر تقريبا بربع قيمة ما يدفعه من الايجار للمالك عن الفدان ، فبربك كم يحتمل هذا الفلاح المسكين كل هذا الجور والارهاق اذا كان حتي مرور بعض الحكام ورحلاتهم ورياضتهم ونزهاتهم كل ذلك يجبي ويحصل من مجهود فلاحنا المسكين ! هذا الفلاح الذي يعد حتي العسكري أو الخفير في مرتبة البيك المأمور أو الباشا المدير كما يسميهم ، ولا زالت ذاكرتي تحفظ حكاية الفلاح مع الخديوي السابق ، حين خاطب هذا الفلاح الطيب الجاهل الساذج « افندينا » كما كانوا يسمونه وقال له : ربنا يرقيك ويجيبك عندنا مأمور ! وهذا الفلاح المسكين الذي يحسب أن هذا المأمور أو ذاك المدير خلفاء الله في أرضه لا يعصي لهما أمر ولا يرفض لهما طلب ، هذا الفلاح لم يتصور هؤلاء جميعاً هكذا ولم ينظر اليهم هذه النظرة التي كلها خوف وأرهاب وخشوع وتهيب ، الا لان جهله خيل اليه وأوهمه ان هؤلاء في مرتبة من الخلق أعلى من مرتبته أو من طينة غير طينته ، والا لأن يد الاستبداد والعصور السود التي مرت على

مصر فى تواريخها الطافحة بفظائع الجور وأنات البؤس ، وهؤلاء الحكام الطغاة الذين افردت لهم اللغات في قواميسها ومعاجمها لفظة « الدكتاتورية » والذين ابتلعوا أو استلبوا أرادات الأفراد والمجاميع وقبضوها فى يدهم التى يفخرون بأنها من فولاذ وصلب وحديد ، والذين يريدون أن يوجهوا أممهم ودولهم حسبما تشاء هذه الارادة العليا وهذه اليد الحديديه وهؤلاء المستبدون الجبابرة الاقزام الذين يطمعون في أن يسحقوا ارادة الأمة وكلمة الشعب وصيحة الحق ، لتعلو أرادتهم المقهورة وتنتصر يدهم المفلولة المشلولة ، هؤلاء جميعا استغلوا كما قلنا جهل هذا الفلاح المسكين فسلبوه ارادته وساوموه على شرفه وعلى أنفته وكرامته ، ثم فعلوا به ما أرادوا ، ثم جعلوه عبداً يباع ويشترى بارادتهم ، ثم عاشوا وتنزهوا وتنعموا وتقامروا وتغازلوا ، وقضوا حاجات قلوبهم ونفوسهم بما يقتطعون من لحمه ويشربون من دمه ، ومن مجهود وعرق وشباب هذا الفلاح الشقي بجهله أبلغ مراتب الشقاوة ، والمسكين التعس بحكامه وملاكه أقصى منازل التعس !!

مسكين فلاحنا ! عليه كل الغرم وليس له من الغنم شيء ، حرموه نعمة العلم وتركوه في حال ليست اشرف كثيراً من حال حيوانه ، ثم استخدموا هذه الجهالة وهذا الفقدان للشعور في تنفيذ اغراضهم وقضاء شهواتهم حتى كاد يزرح بالحمل ويسقط صريعا أو يتخذ له طريقا أخرى يتخلص بها مما هو فيه من حرمان ومن جهل

ومن ظلم ، واني لأكتب هذه السطور وبي من الخشية ومن الوجل ومن الاضطرار للقول بأن حاله السيئة الحاضرة البالغة أقصى ماتتصور من جهالة وشقاوة واستعباد في عصر سحقت فيه كل صنوف الاستعباد والاستغلال ، اخشى ان تدفعه الفاقة والحاجة الى العدل والاصلاح والى النور والحق ، الى ما انتهت اليه حركة الفلاح أو العامل في بلاد أوربا حينما أنوا من الشكوى ورزحوا تحت أحمال البؤس والفاقة والجهل والجور ، نعم ! اخشى ذلك اليوم كل الخشية وأخاف ان تلجئه هذه الحال السيئة الى مالا نحب ولا تحب الحكومة وأولو الأمر والاغنياء أن يكون !

وحبنا للسلام وللهدوء وللعدالة ، ووفاؤنا لمصر ولفلاحها وريفها ، وحرصنا على حياة الأمن والدعة والطمأنينة ، كل ذلك يدعونا الى الخشية والخوف من أن تذيع المبادىء المتطرفة من الشيوعية وأبالسة البلشفية في بلد آمن وديع كمصر ، وبين ناس يحرصون على الحياة المطمئنة الهادئة كأبناء مصر ، لاسيما أن المتطرفة والبلاشفة وأنصار الهدم والتخريب يبذلون جهودهم في ادخال مبادئهم وتعاليمهم وسمومهم الفتاكة بين أبناء هذا الوادي المبارك الامين ، ونحن نخشى كل الخشية في صراحة وشجاعة واخلاص أن تجد هذه النار الحامية في طريقها وقوداً تأكله ويزيدها اندلاعا وتوهجا ، نخشى أن تجد لها في مصر وبين طبقة الفلاحين والعمال ومن اليهم أرضا رحبة تنبت فيها غرسها ونبتها ، وهذا الخوف وهذه

الخشية هما اللذان يدعواننا الى ان ننادى عاليا ونناشد كل من يهمه أمر الوطن وشئون ابنائه أن يعملوا جميعا على منع هذه النار التي لا تبقي على شيء قبل وصولها أرض مصر ، وذلك بالعناية بشئون الفلاح وبحاجات العامل عناية تليق وما تطور اليه العالم وما استحدث على مصر الحديثه في عصر النور والحق والحريات المقدسة ، والفلاح والعامل هما أكثر الطبقات في كل أمم العالم وخصوصا في مصر استعدادا لقبول المباديء المتطرفة والدعوات الهدامة ورسالة التخريب والبطش والفتك !

واذا نحن نادينا وناشدنا أحدا فانما ننادي ونناشد الحكومة أولا ثم الاغنياء ثانيا ، لأن هؤلاء جميعا هم المسئولون حقاً عن شئون الفلاح ومطالب العامل ، وكلا الطبقتين هما المنتجتان العاملتان حقا في حياة مصر الاقتصادية وثروتها الانتاجية !

قد حدثتك عن بعض المظالم والضرائب التى تنصب على رأس فلاحنا سواء من المالك المستبد أو من رجال الحكومة ، ولقد أنسيت ان اذكر تلك المحاضر العديدة التي يحبرها المعاونون ضد هذا الفلاح المسكين لانه لم يحسن انتقاء زرعه من دودة القطن وأيضا عقوبات مخالفات الري ، وياليت هؤلاء المعاونين ورجال الزراعة يخلصون لوظائفهم في مصلحة الفلاح فيتفقدون بانفسهم راجلين الحقول والغيطان ليروا بعيونهم هم لا بعيون غيرهم ولا بآذان وألسنة الاشاعات والاقاويل ، ليروا محصول القطن ويقدروه تقديرا حقا قائما على

المشاهدة الحسية ، ولكنهم يقدرونه ويا للأسف ويا للحسرة وهم جالسون على مكاتبهم الجميلة وبين أوراقهم الرسمية المكدسة ، وأمامهم كوبات الليمون وفناجين القهوة ، وعلى رؤسهم وحواليهم المراوح الكهربائية تذهب عنهم هجير الحر ، ثم بعد ذلك يقولون ان لنا وزارة زراعة مصرية في حي من اجمل أحياء القاهرة وفيها مكاتب ودواوين ، وفيها موظفون ومفتشون ، ومعاونون ، ويوهموننا أنها وزارة الفلاح المصري ، وزارة الانتاج والثروة ، وزارة روح مصر وحياتها الاقتصادية ، ويوهموننا أنها تعمل حقا لأسعاد الفلاح ولسماع شكواه ولزيادة الانتاج وتجديد الصنوف النباتية الزراعية وتحسين التربة المصرية ، وادخال ما ينقص مصر من أنواع النبات وما يتفق وتربتها وجوها !!

يمر العام كله تقريبا ولا يرى الفلاح المصري رجال الزراعة بين الحقول والغيطان الا ندورا ، ثم لا يلبث أن يسمع أن الجرائد نشرت تقريرا بل تقارير وزارة الزراعة لتقدير محصول القطن تقديراً يوهم أنه حق وليس فيه من الحق قليل ولا كثير ، تقدير قدر وكتب وحبر وجمع على المكاتب لا بين الحقول ، وتحت المراوح لا بين الفلاح !

نقول يا ليت رجال الزراعة يخلصون لوظائفهم فى تقدير القطن كل عام وفي سماع أنات الفلاح كما يخلصون لها اخلاصا كبيراً في كتابة المحاضر والمخالفات ! !

ومن أعجب العجب أننا نعيش فى عصر يقولون انه عصر الحريات المكفولة والدساتير المصونة والعدالة الانسانية ، ثم لا نزال نرى بأعيننا الفلاح المصري يرسل عنوة وجبراً وبقوة رجال الادارة والحكومة لحفظ مياه النيل ، فيذكرنا هذا بعصور السخرة وعهود الجبروت ، ومع ذلك أتحسب أن الحكومة تقوم بنفقاته بضعة الايام التى يقضيها المسكين ليقوم بهذه الرسالة ؟ ولكن الموظف الذي ينتدب ولو لأتفه المسائل تجود عليه الخزينة الغنية بالجنيهات وبالأوراق !

لقد كنا سمعنا قديما أن الحكومة تفكر في أن تكلف مقاولين يقومون هم بحفظ مياه النيل عند الفيضان على نفقاتها فتبطل السخرة ويستريح الفلاح الذي لا يعرف الراحة حتي يستريح الراحة الكبرى ! فأين آثار هذا التفكير ؟ والاّ هل نقضي اعمارنا في بلد العجائب فلا نسمع عن مشروعات مستخرجة من معامل القول والخطب والوعد والتزويق ، حتي نسمع عن قبرها وموتها وهي جنين فى مهدها ؟ هل نقضي أعمارنا كالاطفال تضحك منا الحكومة التي نقيمها علينا بجهودنا وبدمائنا وبشبابنا بمسول الامل وبكاذب القول وبحلاوة اللسان وأخيراً بروغان الثعلب ؟

يا رجال الحكومه أيا تكون حكومتكم ! كفى شفقة بالفلاح وحدباً عليه ! ارحموه من عدالتكم لانها أكثر من طاقته وأثقل من جهده لأننا نخشى أن يفدحه الحمل وتبهظه الرحمة والعدالة فيقع

صريعا مكدوداً ! من هذا الذي تنزلون به كل يوم من الارهاق والجور ألوانا ، ومن الحرمان والاسترقاق صنوفا ؟ أليس هو ذلك المسكين الذي يأكل خبزه من الحلبة والاذرة ، ويشرب الماء العطن الراكد في المجاري وحول الجيف ، ويعيش على الزيت والمش والبصل ؟ ان هذا المسكين بجهله هو الذي تأكلون وتلبسون من غرس يده ، وتتريضون وتغازلون وتراقصون من جيبه ومن عرقه ، هو يزرع وانتم تحصدون ، ويسهر وتنامون ، ويشرب الماء كدرا وتشربون المدام صافية والكأس مترعة متألقة ، ويموت بين الجوع والعرى وانتم بين الكأس وبنات الهوى ، أليس كذلك يا رجال العدالة والرحمة والانصاف ؟! ألا تعلمون بأن هذا المسكين ما كان ليتحمل كل هذه الضروب من الاعتساف والحرمان وهذه الحياة المظلمة النكداء ، لولا جهله الذي يدعه يصبر على الضيم ويرضى بالهوان ؟ وهل تعلمون انه لو ينال قسطه من العلم ونصيبه من النور والعرفان لأصبح يشعر بالظلم ويحس بالحال ، والشعور بالظلم كما تعرفون — لا الظلم — هو أساس المطالبة بالحرية ؟؟ !!

يا ذوي الاملاك ويا أصحاب الطين ! ان اشرف مافي الحياة العدالة ، وان ذلك الذي تنزلونه منكم منزلة العبد الأجير أو الآلة المسيرة أو الحيوان المسوق ، ان صبر على الضيم طويلا ، وان قضت ظروف العصور السود التي مرت به في عهود الماضي المنكود أن تسكته عن طلب الاصلاح والعلاج لحاله

فانه الآن في تلك العصور المضيئة التي أتاحت لكل انسان أن يرى بعينيه حتى يعرف كيف يمشي بقدميه ، فى هذه العصور التي أوشكت فيها صروح الاستبداد والأسترقاق والأقطاعية أن تندك وتتبدد ، في هذه العصور التى خرجت بالانسانية من مجازر التعصب وعماية الجهالة ووحشية التعسف وأسر العبودية ، الى جلال التسامح واضواء العالم وسمو العدالة وفضاء الحرية ، فى تلك العصور عصور تحرير الفرد من قيود الجماعات وارهاق الحكومات وارادات المستبدين الحاكمين بأمرهم ، عصور جعل الامة مصدر السلطات جميعاً ، عصور محاولة الانسانية الى أن تزيل الاحقاد والاحن والخصومات ، لتعيش فى دعة وطمأنينة وسلام وأخاء وحب حتى تخرج خير ثمارها وخالد آثارها !

أقول في هذه العصور وفي هذا العصر الذي نعيش فيه ، من القسوة كل القسوة أن نطالب من الفلاح المصري . . . . . الفلاح المصري الذي بقى الى الآن على ما كان عليه في عهود المماليك السود رغم وجود تلك الهوة السحيقة بين طبيعة كل من العصرين والعهدين وبين روح الجماعات واختلاف وجهات النظر الى الحياة في كل مرافقها ونواحيها ، من القسوة ان نطالب منه الا يشكو من هذه الحال ..... وقد رأى نفسه عبداً لمالكه وآلة لحكامه وفقيراً بائسا في حياته ، فعالجوا الداء قبل أن يستفحل ويعز عليكم الدواء ولات مندمة ولا ليت ! وانى لأخشى أن بذور الاستنكار

المر والشكوي الحارة التى أصبحت تتجاوب في كل صدر وتتموج في كل نفس وتجيش لكل خاطر ، أخشى أن تجد هذه البذور لها أرضا قابلة للنمو والازهار فيصعب اقتلاعها من جذورها أو القضاء عليها فى حقلها ، فاذا كنا أوفياء حقا لهذا الوطن غيورين حقا على مصالحه وراحة ابنائه ، عاملين حقا على أن يعيشوا في طمأنينة وأمن وسلام وحب وعدالة واخاء ومساواة ، فعلينا أن نعالج هذه البذور قبل ان تنبت وتزدهر وترعي ، وان نقتل الجنين فى بطن امه قبل ان يظهر الى الوجود ويتدرع بالمنعة والقوة ! والخطوة الاولى في رأينا لأصلاح هذه الحال وعلاجها ولتضمد هذه الجراحات الدامية هي التعليم ، فعلموا الفلاح قبل كل شيء وقبل كل خطوة في الاصلاح أو عملية فى البناء ، فأن جهله هوسبب شقوته وفقره وبؤسه واضطهاده وهو سبب شقاء مصر جميعا ، وهذا الجهل — اذا كنتم تذكرون — هودعامة السياسة الكرومرية وتكأة الاجرام الدنلوبي ، نعم فأن أصحاب الجلاليب الزرقاء كما كان يتغنى بذلك السيد كرومر عميد قصر الدوبارة ، هم الذين اتخذت منهم السياسة الاستعمارية وسائلها ووسائطها في البطش بالحرية وبالدستور ، وفى اخماد جذوة الوطنية والحماس القومي ، وفى تغيير وجهات الجهاد ونزعات ومطالب المصريين ، وفي حصر كل الجهود والاعمال فيما يسمونه الجهاد الداخلي أو السياسة الداخلية ، هذه السياسة الكرومرية ، المزينة بمعسول القول ورخاوة اللين لم تجد لها مرعى

خصيبا تنشب فيه اظفارها وتنبت فيه غرسها الا عند الفلاح ، الا عند أصحاب الجلاليب الزرقاء الذين اتخذوا من جهلهم ومن سذاجتهم شبه دليل على انهم يرضون بحكمهم لا بل أكثر ! يفضلونه على الحكم المصري والسياسة المصرية الوطنية !

فاذا علمنا أن أقدار الامم جميعا ونصيبها من الحياة المحترمة الموفورة الكاملة ، وان اتجاهات هذه الحياة أنما تقاس وتوزن بقدر نصيبها من هذا النور الشائع ومن المعرفة والثقافة الانسانية ، فيكون فلاحنا أشقى صنوف الانسان جميعا اذا راعينا هذه الفروق الكبيرة بينه وبين الطبقات الغنية الارستقراطية المتحكمة في مصر ، واذا راعينا العصر الذي يعيش فيه وتلك المنزلة أوهذا الوضع الذي وضعته فيه الاقدار أو وضعته فيه الحكومات ورجال المال والطين ، واذا راعينا ايضا طبيعة وروح هذا العصر الذي ينفر ويكره أي لون من ألوان الظلام والاعتساف والحرمان من الانسان لاخيه الانسان !

هذا ولا أحب أن أدع الآن حياة فلاحنا قبل أن أقول كلمة في ناحية هامة من نواحي حياته : تلك هي الناحية الاعتقادية وان كانت « بسيكاوجية » اكثر منها « بيروجرافية » ، ولقد حدثتك قبل الآن عن اعتقاده المفرط في « الاتكالية » ونسيت أن احدثك عن اعتقاده الكبير أيضا بالأولياء والصالحين المقربين ، ولست أحد عبارة أوفى وأجلى للمعنى وأوجز لتوضيح هذه الاعتقادية من أن اقول انه يكاد يقدم لهم فروض العبادة والتقديس ويرفع اليهم الصلاة ،

فليس يتصورهم ناسا مثلنا لهم مالنا وعليهم ما علينا ، وتقلبوا في كل الاطوار « الجنينية » والبيولوجية مثل ما تقلبنا ، وانما يقوده خياله ويصور له تعصبه الاعتقادي ان هؤلاء السادة والأولياء ليسوا بشرا ولا من طينة الانسان ، فويل لمن يصيب أحدهم بكلمة تؤذيه في قبره وويل لمن يظنهم ناسا مثلنا لهم عينان وقدمان ويدان ، وخلقوا من طين وعاشوا كما نعيش الآن على هذه الأرض التي نتمثل فوقها رواية الحياة والتي ستسدل عليها أيضا الستار لتبدأ قصة الموت ، نعم ! ويل لمن يحسبهم يأكلون مثلنا وينامون ويشربون ويحبون ويكرهون ويخافون ويخجلون وينسون ويذكرون ويأتون أحيانا المنكر ويقضون حاجات نفوسهم مثل ماتأتى وما نقضي جميعا !

واذا أراد أحدهم نجاح عمل له نذر لولي من الاولياء خروفا أو بقرة أو عجلا أو جديا ، فان نجح هذا العمل ظن بل أيقن أن هذا النجاح جاء به هذا الولي الكبير ، وان خاب وفشل أيقن ان هذا الولي مغضب عليه ناقم منه ، ولذلك فهو قد خيّب مسعاه وأفشل أمره ، وما عليه أزاء هذا الغضب وهذه النقمة الا أن يترضاه بكل صنوف الترضي ، فينفق فى سبيل ذلك من المال الذي قد تكون داره وأولاده فى أشد الحاجات اليه ، ولكن رضاء الاولياء عنده فوق كل حاجة !

يدفعنى التحدث عن هذه الناحية الاعتقادية في فلاحنا الى أن أتحدث قليلا عن طبيعة عقيدته أو جوهر ايمانه ، يلخص هذا الايمان

فيما نسميه « أيمان العجائز » ويتميز هذا الصنف من الايمان بالاستسلام التام وبالسكوت المطلق عن كل تفكير أو توجه أو بحث في المسائل الاعتقادية ، فما علينا الا أن نسير كما سار السلف وأن نعتقد كما اعتقدوا وأن نستسلم كما استسلموا ، وأن نقبل كل شيء راضين مطمئنين قانعين بدون بحث أو تفكير أو اجهاد أو اقناع أو جدل

ففلاحنا إذن أبعد الناس عن التفكير في الالهيات بل في كل المسائل الاعتقادية ، ولذلك هو أشد الناس سخطا وغضبا على كل من يحاول أمامه في مسألة تحوم قريبا أو بعيداً حول الشئون الدينية وليس له اذا سمع هذا الذي يتحدث في هذه الشئون الا أن يرميه بالالحاد ، والا ان يخرجه من الجماعة الاسلامية ، وكل هذا متفق مع طبيعة حياة الفلاح وعقليته ، فليس في استطاعة كل واحد أن يفهم الأديان ويتجادل فيها ، ونحسب انه لن يهضمها ويتعرفها ويفهمها الا من أوتى حظا كبيراً من الثقافة والعلم ، فهؤلاء حقاً هم الذين يدركون ما نسميه بالفلسفة الدينية

وقد يكون هذا الضرب من الايمان (أيمان العجائز) أروح للنفس التي تحب الدعة وتجنح الى الهدوء والطمأنينة الى ما تعلم وتؤمن ، وتكره البحث عما وراء العقل الانساني الغامض ، وتخاف أن يذهب بها الشك بعيداً عن ضوء اليقين وساحة الأيمان فتعاني آلام التشريد وعذاب القلق ، فما لها تفكر وتبحث مع الباحثين في طبيعة الاله وفي كنهه وقوته وفي كونه وملكوته وفي خلقه وعوالمه وفي ارادته

وحدودها وفى الأديان وتعددها والرسل وتعاليمهم والأنبياء ومذاهبهم ، وما لها تفكر فى الوحي اذا كان صدقا أو غير صدق ، أو في هذا الرسول أو هذا النبي اذا كان قد وجد أولم يكن موجوداً ، وما لها تبحث فى كيف خلق العالم ومن أين جئنا ، أو كيف يدبر الله الكون ويدير أموره ، وكيف تسيره قوته وتوجهه ارادته ، وما لها تجد نفسها فى البحث والتفكير في البعث والمعاد ، وفي الثواب والعقاب ، ما لها تكلف نفسها كل هذا وهي مؤمنة متيقنة بأله واحد يدير هذا الكون الواسع ، مؤمنة بأنبيائه ورسله جميعاً وباليوم الآخر ايمانا لا تحب أن تذهب فيه مذاهب التفكير لانها في غنى عنها ! وخوفا من أن يضعف من ايمانها أو يذبذب يقينها وما يرتجي هذا الفلاح في حياته إلا أن يحصل له ولاولاده الرزق فى حياته ، ثم يعمل لآخرته بما يجعلها آخرة محمودة ونهاية مشكورة حتى يقابل ربه يوم المعاد بصحيفة بيضاء وبعمل مرضى ، ولأجل العمل لهذه الاخرة يقوم بفروض الصلاة التي أمر الله بها متقربا بها الى الله لتشفع له عما يرتكب ويأثم في حياته ، وتكاد هذه الفريضة أو هذا الصنف من المراسم التعبدية هو كل مايعرفه ويفهمه فلاحنا نحو الدين ، وأظننا نقسو كثيراً ونتطرف لوطلبنا منه أكثر من ذلك ونحن نعلم في أي ظلمات الجهالة يعيش ! !

هذا الاستسلام المطلق وهذه الطمأنينة الاعتقادية هما السبب الاكبر فيما نغبط الفلاح المصري عليه من قناعة النفس ورضى

الضمير اللذين نحسبهما بحق سعادة السعادات وتاج النعيم ، وسنعرف حين نتحدث عن نفسيته أن من أخص صفاته وخلقه القناعة ، وانها العامل الاكبر فيما نحسب له من نعيم وسعادة !

والآن نحب أن نتحدث عن خلق فلاحنا وعن نفسيته حديثاً لا ننقص منه ولا نزيد ، وأن نصورهما تصويراً يتفق والغرض الذي دفعنا الى كتابة هذه الاحاديث ثم اذاعتها بين الناس ، تصويراً لا نحابي فيه ولا نكذب ، هو صورة ما نعتقد أنه حق ونؤمن بأنه صدق ، وحسبنا هذا الأعتقاد شفيعاً فيما نخطىء من تصوير ، ولسنا نبغي من هذه الاحاديث المبثوثة في هذه الاوراق كما قلنا قبل الآن ، إلا أن نصل فلاحنا المصري بالبيئات المدنية في عصر اتصلت فيه الامم وتعارفت ، ولم يتصل فيه الفلاح المصري بالبيئات المدنية المصرية فضلا عن البيئات العالمية فلا يزال يعيش في حقله وفي داره منفرداً بعيداً عن حياة المدن وحياة العالم جميعاً بجهله ويجهلها ، حتى أوشك هذا الفلاح المسكين أن يكون صنفا آخر من الانسان الذي نعرفه ونفهمه ، ونستمتع بخصائصه وحقوقه وتعاريفه ، في عصر يجب الا يكون فيه إلا صنف واحد من الانسان كما أراد الله وكما شاءت القوانين !

أول ما يخطر ببال من لا يعرف الفلاح المصري انه رجل متوحش همجي شرير ، سفاك للدماء جاف الطباع غليظ القلب منكر الخصال ، هذه الصورة الكاذبة القاسية التي تصور فلاحنا فيها

جانب كبير من القسوة ومن الظلم ، وذلك لان ابتعادنا عن فلاحنا وعدم اختلاط كثير منا به ، وزهونا وكبرياءنا عليه ، وتفكيرنا واعتقادنا بأنه من أصحاب الجلاليب الزرقاء وحملة الفؤوس ، وبأنه مخلوق لا يعنينا كثيراً بأن نبحث في حياته وفي خلقه وفي وجوه اصلاحه ، كل هذا جعل تلك الصورة بعيدة عن الحق وعن العدالة ، ومن الاسف حقا بل من المخجل والمبكي معاً أن يأتي البعض فيقلل من خطر هـذا العمل الذي أخذت نفسي به ويصغر من شأن هذا الوجه من وجوه الأصلاح المصرى الذى أقدمت عليه ، وذلك لأنى قصرت جهودي واتخذت نصيبي من العمل والبناء وزرعت غرسى فى أرض يحسبها ويراها هذا البعض لا تجدر للزرع والنماء ، وليست خليقة بأن نتعهدها بالاصلاح والحرث والري ، وفات هذا البعض الظالم أنه من أكبر الوصمات التي تلحق بفخارنا القومي اذا ما ذكرت كل أمة فخارها أن يبقي ريفنا وفلاحنا فى القرن العشرين وفى عصر النور والعرفان وتقرير الحريات ونصرة العدالة ، كما كانا فى عصور الجبروت وعهود السخرة والجهالة !

مسكين أيها الفلاح ! يظهر ان الأقدار لا يكفيها أن تعيش وتحيا هذه الحياة النكداء البئيسة وتحرم كل حقوق الأنسان وتكلف بكل أعمال الاستثمار والانتاج ، فهي تغبطك أيضا حتى على عين تذرف الدمع سخينا عليك ، وعلى قلم يتحرك حـدبا بك ! حتى أنصارك وحماتك أيها الفلاح أعداء القدر !

نعم ! تكاد الصورة التي يتصورها كثير منا عن فلاحنا تتلخص في الهمجية وفي الشر والسفك ، ونكاد لا نعرف عنه سوى جوانب الشر ، أما الجوانب الأخرى البيضاء فنجهلها كل الجهل أو لا نحب أن نعرفها ازوراراً وصلفاً وعتواً ، وذلك لأن المدنية الغربية غمرتنا عقلا وقلباً ووجوداً واحساساً ، وأبعدتنا عن الركون والحنين الى جمال البساطة وجلال البداوة والشفقة على الفقراء والرحمة بالبائسين ، فأفسدت علينا قلوبنا وحواسنا بما انتزعت منا خير ما يشرف انسانيتنا ويسمو بها : الرحمة والوفاء !

ولقد تكون العلة الاولى والباعث الاكبر في ابتعادنا عن الفلاح وعن خلاطه ومعاشرته ومجالسته واحتقار الكثير له هو بكل أسف جهله وعدم تحضره الذي يتسبب عن جهله ، ولكن هل هو الذى ارتضى لنفسه الجهل وعدم الحضارة ؟ هل هو الذي حبس نفسه في هذا السجن المظلم بعيداً عن النور وعن الحق وعن الجمال ؟ وبعبارة أخرى هل هو الذي اختار لنفسه أن يكون عبداً لمالكه أسيراً لحكامه فقيراً بائساً محروماً ؟ ليس المسكين هو الملوم وليس هو الذي يريد لنفسه عار الجهالة وذلة الغباء ، ولكنهم أنكروا وجوده وسلبوه حقوقه وألقوه فى غيابات الجهالة لئلا يفتح عينيه فيرى النور ويبصر الحقيقة ويعرف العالم والموجود !

ولكننا — في سبيل الحق وحده — لا نريد أن ندع هذه النقطة تمر بدون أن نحمله نصيباً من اللائمة الى حد ما وان تك

خارجة حقا عن ذاتيته وارادته المجردة ، فان العصور السود — كما قلنا — التي مر بها الفلاح المصرى وأخصها عصر المماليك المنكود قد أورثته الاستكانة وحببت اليه الاخلاد الى الكسل بما يقرب من الرخاوة تجاه حقوقه ومطالبه ، وأورثته الذلة والخضوع حتى ظهر الجهل فيه بثوب البلاهة ، ولا يزال هذا الميراث يتوارثه الابن عن أبيه عن جده ، حتى كأن الجهل أصبح لديه لذة لا تعدلها لذة ، وحتى أصبح طلب العلم عند الكثير منهم أمراً نكراً ويكاد يكون الحادا ، فكثيرا ما نرى بأعيننا ان الطفل فى القرى لا يخرج الى الكتاب إلا باكيا من الضرب ، وإلا مكتفا أو مشدوداً حتى لا يعبث برجليه من الجماح والغضب ، وكثيراً ما نرى ان الاب يرسل ابنه للكتاب أو للمدرسة ، فاذا ضربه الفقيه أو (الشيخ) أو المدرس ولو ضربا خفيفا لانه لم يقم بواجبه ، ذهب الولد باكيا منتحباً الى أمه شاكيا الشيخ او المدرس اليها ، فتأخذ هذه الام فى لعن المدرس أو الشيخ وفى استنزال الغضب والسخط على العلم الذى من أجله يهان ابنها العزيز وتجرح كرامته وتدمع عيناه ، وهنا تمنعه مطلقا عن الذهاب الى الكتاب أو المدرسة ، والاب بما انه لا يدرك قيمة العلم يترك ابنه يتربى كما يتربى هو بين الحقول وعلى الاكوام خيراً من الكتاتيب أو المدارس ، وخصوصا لانه ينتفع منه في استخدامه معه فى العمل ومساعدته ، وخير له أن يرى ابنه يتدلل على ركبتيه فى قذارته البالغة أقصى مراتب القذارة ،

من أن يرسله بعيداً عنه للكتاب أو للمدرسة فيحرم رؤيته واستخدامه معه ، وكم من مرة لاحظت في مشاهدتي وأنا في الريف أن الأب يرسل ابنه للمدرسة أو للكتاب ، فاذا حدث أن الابن مرض وهو في غضون الدراسة تستدعيه الأم اليها ليبقى بجانبها وليلعب على ركبتها وتمنعه عن الذهاب إلى الكتاب أو المدرسة التي سببت مرضه وابعدته عنها ، وهكذا يضيع جانب كبير من ثروتنا العلمية، وهكذا كم يدفن من درر وجواهر في التراب أصبحت بفضل الاهمال احجاراً مبعثرة على الأكوام تلهو بها الصبية والغلمان كان ينقصها لأن تكون جواهر ودرر تبعث النور والقوة والعظمة يد تنفض عنها ترابها وتخرجها من رمالها ، وتتعهدها بالحفظ والرعاية والصقل والتهذيب ! وهكذا يقضي على نبوغ عدد كبير من اطفالنا وشبابنا وهم لا يزالون بعد في مهاد العلم وأولى مراتب التثقيف والتهذيب ، مابين بلاهة الأمهات وغباء الآباء !

لا يمكننا ان نعرف نفسية الفلاح معرفة حقة قائمة على الصدق الا اذا درسناها درسا عمليا وعاشرناه ، حتي يظهر لنا الجانب الابيض والجانب الاسود فيه ، وإذا فعلنا ذلك كنا قضاة عدولا !

لعل أبين ظاهرة خلقية في فلاحنا هي « القناعة » كما قلنا حينما تحدثنا عن حياته ، وسنرى حين نتحدث عن سعادته أن هذه القناعة وهذا الاطمئنان الى ما يعلم هما سر راحة باله واسعاد فكره أمام ما يعانى من آلام وما يكابد من ضنك وحرمان وبؤس ، فهو يقنع

بكل شيء قل أو كثر ، ويرضى بما يكتبه الله له من نصيب وقسمة ورزق . سعادة كانت أو شقاء ، فاذا كان كل شيء مصدره الآله ومرجعه الى الخالق فليس علينا كعباد له مخلصين مؤمنين الا أن نرضى ونخضع لارادته فينا وحكمه علينا ، فهو تعالى مصدر الخير ولا يصدر منه الا الخير ، ولا يقصد بنا الا الى الخير ، فمن الخير اذن أن نرضى بكل ما قسمه لنا من نصيب في الحياة ، ومن الخير أن نحول آلامنا بأنفسنا الى لذات وان نجعل من الشر خيراً ومن المنكر معروفا ، وأكبر سعادة لنا هي ان نقنع بما بين أيدينا وبما ينزل علينا من عند الله ، لأنه تعالى هو الذي أراد ذلك لنا ، اذ ليس في أيدينا وسيلة ما الى تحقيق مطامحنا بأنفسنا ، فاذا كنا عاجزين هذا العجز فمن الحكمة أن نقنع ومن حسن الرأي أن نرضى بمقدورنا ونخضع لمصيرنا ، ولعل غدنا يكون أكثر توفيقا ويمنا من يومنا ، ولعل يومنا يكون أحسن حالا من أمسنا ، ولعل الله يحدث بعد ذلك أمراً ويجعل من العسر يسراً ؟

هذه النفسية الراضية القانعة بكل شيء في الفلاح هي التي تجعله دائما راضيا وديعا متفائلا مغتبطا ، فان أصابه ضر أو ضيم أو أصاب زرعه وبال أو خسر ، لا يتبرم ولا يتضجر لأنهما ينافيان الخضوع لكل ما يأتي به الله ولأنه لا يجديه الضجر أو التأفف ، ولكنه بدلا من هذا يحمد الله على السراء والضراء والبؤس والنعمى وعلى الخير والشر على السواء ، فاذا فجع في ولد له عزيز عليه لم يذهب به الحزن والأسى

ما يذهبان بسائر الناس من عويل ونباح وشبه ذهول وضعف ايمان، وانما يسلم نفسه الى الله ليهبه السلوى ويمنحه العزاء ويوليه الصبر، واذا أصابته مصيبة لا يسعه الا أن يفوض أمره الى الله، ويقول لنفسه: لعلي فى غدى أكون أحسن توفيقا واسعاداً منى فى يومى وأمسي ولعل ذلك نتيجة غضب الأله علي لذنب اقترفته أو جرم اجترمته فاستحققت هذا الجزاء !

هذه النفسية الراضية الهادئة المستسلمة كما قلنا قبل الآن هي أحسن مافى فلاحنا من خلق وهي التي يحسد عليها حقا، وسنرى انها « ونعيم الجهالة » هي سر وسعادة هذا الفلاح سعادة تعز على الكثيرين، ولعل السبب الحق فى عدم قيام هذا الفلاح فى وجه ظالميه والخروج عليهم بالعصيان، في العصور الماضية الدابرة . هو هذه النفسية الراضية المستسلمة الناعمة القانعة المطمئنة راغبة اومكرهة الى ما تعيش، هو هذه الظاهرة الخلقية الفذة التى تهيمن على كل وجوده وتؤثر في كل حياته، ولذلك عرفها حكامه وملاكه فاستغلوها واستخدموها في أذلاله وأرهاقه، وحسبوا الرضي بلاهة والقناعة سذاجة، والاستسلام مسكنة وذلا وعجزا، والصمت والسكوت قبولا للذل ورضي بالهوان ! !

سبق ان تحدثنا عن اعتقاد الفلاح وسمينا ايمانه «ايمان العجائز» والآن ما دمنا نتحدث عن نفسيته أو عالمه الباطنى بمعنى أدق، فنحب أن نذكر كلمة عن هذه الاعتقادية سواء أكانت دينية أم

غير دينية ، الفلاح أكثر الناس محافظة على دينه كما يتصوره ويفهمه فأغلى شيء يحرص عليه ويذود عنه ولو بالمهج والارواح هو دينه ، ولذلك يكره ويتعصب ضد كل من على غير دينه من أصحاب الأديان المنزلة الأخرى وغير المنزلة ، ولعل التعصب من أجلى الظواهر الخلقية المبينة في خلقه وفي اتجاهاته ، ولكن هل نطلب من نفس جاهلة لم يهذبها العلم أن تخلص نفسها من جهالة التعصب لتعيش في نور التسامح ؟ اذن لنكونن قساة ظالمين لا نفهم طبيعة الاشياء !

ولما كان الدين والمحافظة عليه أكبر شاغل يشغل الفلاح كان لذلك أكثر الناس خلطا لكل شيء ولكل مسألة بالدين ، وهو يراه كل شيء في الحياة وكل ما سواه باطل وافك . وربما يعال خوفه من التعليم بهذه العلة فانه يخشى أن يضعف العلم من دينه أو يبدد يقينه لانه يسمع من بعض رجال الدين وأصحاب العمائم الكبيرة الذين سماهم يوما ما أحد كبار أدبائنا « برجال الكهنوت » والذين خشى المرحوم الامام أن يقضوا على هذا الدين بجهلهم وعمايتهم ، يسمع منهم كثيراً بأن العلم والدين لا يمكن أن يتآخيا معاً ، فاذا حضر أحدهم يجب على الآخر أن يغادر المكان لان الارض الواحدة لا تسعهما معا ، واذا علمت ان أمثال هؤلاء المتعالمين كثير في ريفنا ويعيشون وسط فلاحنا المسكين ، فلا تلم هذا المسكين اذا صدق دعواهم واطمئن الى قولهم وكذبهم ، لانه يتصورهم خلفاء الله في أرضه ويتصور كلامهم من لدن عزيز حكيم ،

وأين تذاع وتصدق وتنجح سبل الاحتيال والنصب وطرق الخديعة والكذب في خير من ربوع الجهالة وأمكنة السذاجة ؟ ؟

وحرص الفلاح على دينه ومحافظته عليه وتعصبه له ملائم كل الملاءمة للبيئة التي تحوطه واظروف العيش التى يعيشها ، فهي بيئة كما رأينا هادئة ساجية ، فيها يبدو الكون أعظم ما يبدو ، وتظهر اللانهاية على خير ما يمكن أن تظهر ، وهذا الهدوء يساعد الى درجة كبيرة على التعبد وعلى التفكير في عظمة الخالق وسعة الكون وسر اللانهاية وابداع الوجود ، ونستبيح لنا أن نقول أكثر من ذلك : أن نقول أننا يمكننا أن نرى الله فى الريف خيراً مما نراه في المدن !! ولسنا نحب أن نتوسع في هذا المعنى فلقد أتينا بما فيه الكفاية على ما نظن حين تحدثنا عن الريف وعن صلته بالعبادة وبالتقديس وبالحق وبالجمال !

تلك هي العقيدة الدينية للفلاح بوجه الأجمال ، فما هي العقيدة القومية أو الوطنية له ؟ يؤلمنا أن نقرر هنا فى غضون وتضاعيف هذه الرسالة حقيقة لا ينكرها الا مكابر ، وهي ان القومية المصرية لم تأخذ بعد شكلها الثابت ولم تتركز بعد فى أذهان المصريين تركيزا واضحا منظما مدعما ، واذا كنا نتحدث عن الفلاح فقط فنقول انه بحسب ظروفه وطبيعة وجوده لا يدرك شيئاً لمعنى « القومية » أو لمعنى « المصرية » ، فأحيانا يخلط بين هذه « المصرية » با « لتركية » وأحيانا أخرى با « لعربية » ، فهو اذن يخلط الاعتبارات الدينية

دائما بالاعتبارات القومية ، ولا يزال اللآن يقول لك نحن « أولاد عرب» ولا يزال الكثير يتمسح بالترك «وبالدولة العلية» ويتعصب لها ، ولا يزال الفلاح اذا سألته : ما جنسيتك ؟ يجيبك : من المنوفية أو الغربية أو أسيوط ولا يخطر بباله مطلقا انه من « مصر » ، هذا القطر المعروف بحدوده المعروفة ، ولا يزال اللآن يفهم أن أصله يرجع الى « العرب » وأن تاريخه يبدأ بتاريخهم ، ولسنا ندري الى الآن مدى تأثير هـذا الخلط الذي نخشى أن يفضي إلى ضياع قوميتنا وسط هذه الجهالة والعماية ؟ ومن المؤلم حقاً أن تسمع من الفلاح الذي ينتقل من مديرية إلى أخرى لأسباب معيشته أنات الشكوى والحنين لوطنه الذي فارقه والذي يعـد نفسه غريبا فى الجهة التى انتقل اليها ، فهو إذا كان أصله ومولده في المنوفية ، وعاش في البحيرة ، حسب نفسه غريباً عن الوطن كما يحسب المصري نفسه غريبا في فرنسا مثلا ، ويأخذ في التألم والتوجع واسترجاع الذكريات ، والحنين المبكى أحيانا

هذا التخاخل في الشعور بالوطنية الحقة والأحساس بالمصرية العريقة الخالصة ، وهذا التوزع المبدد للجنسية ، يلاحظ بأجلى وضوح لدى فلاحنا الذي لا يفقه معنى قومية ولا يدرك معنى « مصرية » وبالتالي لا يقدر لنفسه « ذاتية » خاصة معروفة !

ونحب أن نذكر هنا في سبيل الحق وحده أن الفلاح أبعد الناس عن طرق النفاق ووسائل الزلفى وأساليب الاحتيال ، فما الذي يدعوه

الى النفاق والتملق إذا كان القدر قد كتب عليه ان يكون بعيداً كل البعد عن حكامه ، ثم لماذا يرتجى منهم من الخير والمعروف ، وهو يعرف حق المعرفة انه مهما نافق وتزلف فان قلوبهم التي قدت من الصخر واقتطعت من الحديد ، لن تخفق بالشفقة عليه والرحمة به ، وفضلا عن ذلك فانه قد ورث هذا الابتعاد والخوف والرهبة من الحكام والملاك الظالمين ، وأصبح فيه كل هذا غريزة أنماها الزمن وقوتها العصور المتعاقبة وأساليب الحكم المتعددة ، حتى أصبحت العلاقة بينه وبين حكامه وبين ملاّكه علاقة نفور وعزلة ورهبة بدلا من أن تصبح علاقة حب ووئام ورغبة ، ونتج عن هذا النفور وهذا التباعد أن تربى فيه روح الجمود والجبن والخضوع ، والاعتقاد بأنه لا يرتجى له اصلاح أو خير من حكامه وملاكه ، حتى أصبح لا يقابل اشاعات الاصلاح المزعوم وكثرة مستخرجات معمل « المشاريع » الا باسما ساخراً هازئا بل يائسا ، وذلك لأن هذا الاعتقاد أو بمعنى أدق لان هذا اليأس من اصلاح الحال ومن تغيير نظام معيشته ، أصبح جزءا من حياته وشطرا من وجوده ، وأصبح يهيمن عليه ويتملك عليه كل أموره لدرجة انه يكاد يتصور انه دون الناس جميعا قد قدر له البؤس والفاقة والحرمان ، وانه كما ولد محروما مسكيناً جاهلا ، وكما يعيش مكدورا شاكيا بائسا ، فسيموت أيضا فقيرا مهملا منسيا ، ولذلك فالأوفق له أن يبقى على ما هو عليه

وان يرضى بنظام حياته ، سواء أكان نظاما محمودا أم مذموما ، قانعا مكرها بذله وبضيمه وجهله

ومن الحرص على تقرير الحقيقة هنا أن نقول ان فلاحنا المصرى يعيش ما يعيش غير شاعر بالحاجة الى الاصلاح شعورا قويا محددا منظما ، فان الظروف التي يعانيها والبيئة التي يعيش فيها ، وشعوره الوراثي الذى ورثه عن آبائه وأجداده فى عصور العسف والجبروت والظلام ، كل هذا جعله لا يعرف من جوانب الحياة الا جانباً واحدا هو الذى يسير فيه وعليه وبه ، فاليأس المستمر جعله يجهل تصوير الامل ، والجهل المطبق الذى يعيش في ظلماته دعاه لا يعرف تقدير العلم ولا يشعر ببهر النور ، والحكم الاستبدادي الذي عانى ويعاني ظلمه وارهاقه أفقده تقدير العدل ، وظروف البلاد السياسية بما تخللها من نير الاحتلال وبطش الاستعباد أبعدته عن الشعور بمعني الحرية والجهاد لها وفهم مداها وسامي غرضها ، لدرجة انه يخيل الينا أنه أصبح في هذه الحال الشعورية الغامضة المضطربة المبهمة لا يميز كثيرا بين العلم والجهالة أو بين اليأس والأمل أو بين الاستعباد والاستقلال ! وليست اللائمة كما قلنا كثيرا فى ذلك تقع عليه هو بالذات ، وانما على الحكام والملاك الذين أنكروا أو احتقروا وجود انسان له من « حقوق الانسان » نصيب محترم لا يقبل التبديد أو الاستلاب ، وانما على تلك الظروف السياسية القاهرة التى نكبت بها البلاد طول تاريخها وحياتها ، وانما أخيرا على الروح

الاجتماعى الذي تجاهل الى الآن هذا الصنف من الانسان ولم تأخذه فيه عاطفة انسانية نبيلة تحرك الشفقه عليه والرحمة به

سيقول القائلون : اتنكر نصيب الفلاح في النهضة الكبري وفى الثورة القومية التي برهنت أنه يقدر حقا — بخلاف ماتقول — معني الحريات والاستقلال ؟ وليسمع لنا هؤلاء القائلون المستقبلون بأن نقول لهم اننا نقرر معهم فى فخار يرفع رءوسنا وفي عزة تعلى كبرياءنا نصيب الفلاح الأكبر في ثورتنا وفي الدفاع عن الحرية ، ولكن نقرر فى سبيل الحق وحده بأنه لم يكن اندفاعا لدنيا بحتا مصدره الشعور الحق ، الشعور العالم المبصر المقدر ، لم يكن اندفاعا ذاتيا فردا يشعر فيه كل انسان باحساس باطني قوي يحفزه إلى ادراك وتنفيذ ما يريد وما يشعر ، عن فهم وحسن تقدير وتبصرة ونفاذ رأي وشعور بنقص وحاجة الى الاصلاح ، وانما كان اندفاعا مجموعيا شعبيا ، مصدره التيارات الشعبية وروح الجماعات التى هي الى التقليد أكثر منها الى أي شيء آخر !

لم يدعنا الى هذا التقرير الذي يحسبه البعض مرا والذي نعتقد فيه بحق ، الا حرصنا الكبير في تصوير فلاحنا تصويرا يرضي الحق والضمير والواقع ، والاحرصنا على أن نقرر بأن سياسة الحكام والملاك في مصر وسياسة الظروف القاهرة أيضا اشتركتا معا في تكييف فلاحنا هذا الكيف الذي نشاهده ونلحظ آثاره ونتائجه ، ونحن نبكي من الألم ونتحرق من الحسرة لحاله ولحياته التي لا يمكن أن يرضى بهما

انسان يحمل هذا الاسم السامي وهذا المعنى النبيل ، وتحركه نحو اخيه الانسان ولو أبسط عوامل الرحمة وصنوف الشفقة !!

ولقد يكون من تحصيل الحاصل كما يقولون أن نقرر هنا كرم الفلاح المصري وبذل كل مافي طوقه واستطاعته لأراحة وارضاء أضيافه ، ولسنا نذيع بدعا أو نبالغ في الادعاء لو قلنا أنه أكثر من أخيه المصري المدنى نصيبا من الجود وقسطا من الكرم الذي كاد يصبح غريزة من غرائزه وخلة من خلاله وسمة من سماته ، ولا بدع فى ذلك فقدما كان الكرم ولا يزال من خصائص الشرق وبخاصة الكرم المصري الذي نعتقد أنه جعل مصر نهبة للطامعين وتكية للمعوزين وملجأ للمتشردين ، والذي جعل من المصريين قوما « طيبين » كرماء لضيوفهم ، كرما فهمه المستعمرون ورجال المطامع والاغراض ضعفا ووداعة وطيبة ينفذون منها الى ما يريدون ويطمعون !!

والجمال ! ماذا يكون شأنه عند فلاحنا مادمنا نتحدث عن « عالمه الباطنى » ؟ اذا كان الفلاح ما شاهدنا من سذاجة ومن جهل ومن فقر بالاستمتاع بالحياة والشعور بالوجود والحرمان من الخضوع لسلطان الجمال القاهر ، فلا ننتظر مطلقا ان يكون له ذوق خاص محدد في الجمال ، او بمعنى آخر ان يكون له سياسة أو ثقافة منظمة محكمة في تقدير الجمال ، ففلسفة الجمال لو شئنا أن نسميها كذلك بسيطة عنده جداً ، تكاد تقوم على الالوان لو احببنا أن نحصرها ونحدد حدودها ، وهل تريد

من شخص لا يعرف من الوجود الا ظاهره ومن العالم الا جانبه الخارجي المرئي المحسوس ، والا ان يحصر معرفته وشعوره في الناحية الظاهرة المحسوسة من الوجود ، الناحية المادية التي ينتفع منها ويبصرها ويعرفها وتغذي استعداده وميوله وشهواته جميعا ؟ فالمرأة الجميلة عنده المرأة البيضاء او السمراء ، البدينة او الهزيلة ، التي لم يخلق جمالها في هذه الأرض وفي هذا العالم الا لتشبع شهوات الناس ، وترضي حاجاتهم الدنيا .

واذا ذكرنا الجمال فهل يخلق بنا أن ننسي الحب ؟ ومتي كان الجمال والحب منفصلين ؟ او ليس الجمال هو أساس الحب واننا لا يمكننا مطلقا أن نحب شيئاً ما الا متي استجملنا فيه شيئاً يدعونا الى الميل اليه والاعجاب به ثم بحبه ؟ واذا كان الجمال كما رأينا عند الفلاح فما حال الحب لديه ؟ واذا كانت المقدمات في القضايا المنطقية يجب ان تنتج نتائج تتفق واياها ، فهل يكون شأن الحب عند الفلاح غير شأن الجمال والاثنان من دم واحد ومن سلالة واحدة ؟

واذا كان كل ما يعرفه ويفهمه ويتذوقه من الجمال هو الجمال الحسي او بمعني أدق « الشكلي » على حد التعبير القانوني فهل يكون الحب لديه أيضا غير الحب الحسي الذي لم ينل نصيباما من « الملائكية أو السماوية » بل كله من « الانسانية أو الأرضية » لو صحت هذه التعابير ؟

واذن فلنا أن نتساءل : هل يدرك الفلاح معنى الحب ؟ تطرف منا ولا شك أن نطلب منه أن يفهم الحب كما نفهمه ويقدره كما نقدره

الحب هو سر حياتنا بل هو غذاؤها بل هو لب لبابها ، بل هو أنبل ما فيها وأسمى رغم مكابرة المكابرين وانكار المنكرين ، والا فماذا تكون هـذه الحياة اذا جردناها من الحب ؟ انها تكون ولا شك مهزلة الصبية ولعبة الاطفال ، بل ماذا يكون الجسم اذا انتزعنا منه القلب ؟ انه يكون خرابا ينعق فيه الغربان ! نحن نحب ولذلك نحن نعيش ونحيا في الحب ومن الحب وبالحب ! وليس الحب كما يتصوره بعض الفارغين الذين حرموا « الروحية » والملائكيه ، والذين عاشوا ويعيشون طوال حياتهم فى المـادة والنفعية ومن أجل المادة والمنفعة وحدها ، وانما هو كما قال (تاجور) كمال الشعور بالنفس ، أو كما يقول (لامارتين) « لم يخلق الانسان إلا للحب ، فهو لا يشعر برجولته وانسانيته الا يوم يشعر حقيقة انه يحب » !

فأين للفلاح اذن ادراك الحب هذا الأدراك وتصوره هـذا التصور ! ولـكن أنسيت ! هو يفهم الحب ويدركه ، لأنه أحيانا يحب ، ولـكن أي حب وأي شعور بالحب ! ذلك الضرب الخبيث المنكر من الحب ، الحب الذي يستقي منابعه ويستلهم وحيه من شهوات النفس الجسدية ونزواتها الدنيئة ، ذلك الصنف من الحب الساقط الذي يعيش على استمتاع الجسد وحـده واشباع النفس

وحدها بأحط أغذية الهوى فاذن هو يتخذه وسيلة لا غاية ولهواً لا مثلا اعلى ، واشباع جسد لاغذاء روح وقضاء شهوة لا فناء الحبيب فى الحبيب ، فناء اندماج لا فناء اتحاد فقط ، ولا سعياً وراء الكمال الانساني وكمال الوجود من طريق الحب ! !

ومن الطبيعي الا تنتظر أن يكون زواجه قائما على دعامات الحب من الطرفين المتعاقدين أو يقصد به الشركة الروحية والصلة القدسية الطاهرة بين الزوجين الشريكين المتحابين المكمل أحدهما نقص الا خر ، الفاهم المدرك كل منهما وظيفة وحقوق الآخر ، ولسنا نحب الآن أن نتبسط معك في هذه المسألة ولكننا نرجئها الى حين نخصص الحديث عن الريفية كما أخذنا على أنفسنا أن نتحدث عن الريفى !

ومما نحب أن نقرره هنا بمناسبة هذه المسألة اننا لا نحكم على الفلاح وحده هذا الحكم من حيث النظر والأدراك لمعنى الحب وتقدير الجمال ، بل نشرك الكثير جداً من أبناء مصر فى هذا الحكم ، فلا يزال الكثير منا ينظر الى الحب والى من يحبون فتيانا كانوا أو فتيات ، نظرة الفاسقين المرتكبين أمرا فيه عار ووصمة ، ولا يزال الكثير جداً لا ينظرون الى الحب ولا يدركونه الا بقدر مايشبع نفوسهم ويغذى جسومهم ويرضي شهواتهم الجسدية ، ويقولون لمن يتحدث عن الحب المخالف لذلك : انك خيالي أو انك شاعر لا تعيش فى الأرض بل فى السماء ! وكثير جداً منا أيضا

من لا يزال يلوم ويقرع كل من يجده يقرأ فى كتاب أو رواية تتحدث عن هذا الحب الذي نقصده بالذات مهما سمت معانيها ونبلت مراميها ، لأن الحب عندهم محرم ، والحديث فيه محرم ، والذي يحب عاطل لا عمل له ، وهكذا يريدون أن يعيش الناس في أديار أو صوامع ، أو ينزلوا بأرواحهم من سماواتها لتعيش فى أرضهم ووسط عالمهم الذي يقوم على عبادة الجسم وحده وعلى اهمال القلب وتجاهل الروح ! ! !

واذا حدثناهم برسالة المرأة في هذا الوجود ، المرأة الكاملة الجميلة المثقفة المريدة ، أو بقوة الحب الخالقة أو الباعثة ، فما أسهل أن تجرى على ألسنتهم ، :شعراء ! كأن الشعر مستودع الكذب ومنبع الافك والبهتان في هذه الحياة في هذا البلد !

* * *

يسمع كثير منا فى المدن عن الفلاح انه شرير سفاك ، أبعد الناس عن الخير والشفقة ، وأكثر الناس تعطشا للدم وللشر ، ولا شك فى أن هذا الحكم جانباً كبيرا من الظلم على هذا المسكين وقد يطغى الشر على الخير فلا يذكر الناس الا الشر وينسون أو يتناسون الخير ، والشر كثيرا ما يذكر والخير قليلا مايتحدث عنه كما يقول العظيم شكسبير !

لا يمكننا مطلقا أن نقول ان الفلاح بعيد عن الشر ، فقد يكون هذا اسرافا منا دونه أي اسراف ، بل انكاراً للحق دونه أي

انكار ، ولكننا نقول أن هذه الصورة التي تنقل الينا في المدن عن الفلاح المصرى قد كبرت ولا شك ، وفيها نصيب كبير من البعد عن الحق وعن العدالة

كل منا في هذا الوجود مركب من عنصرى الخير والشر ، بمقدار يختلف ضعفا وقوة وقلة وكثرة ، ولا يمكننا مطلقا أن نعمل على محو الشر فى الوجود والغائه من عناصر الانسانية اللازمة ، فهو عنصر ضرورى للحياة ، لكمالها ولنظامها ورقيها وحفظها ، ولقد قال (تاجور) في هذا المعنى : «سؤالنا : لماذا كان الشر في الوجود ، هو نفس سؤالنا لماذا كان النقص ، أو بمعني آخر لماذا كانت الخليقة جميعا ؟ »

ثم ما لنا ننظر الى الشر هذه النظرة القاسية الخاطئة ؟ فهل كان يكون للوجود بغير جوانب متضادة وظاهرات متعاكسة وأوجه متقابلة ؟ ان هذا التقابل أو هذا التضاد هو السر في ضبط نظام الوجود وتوازن الانسانية الدقيق المحكم ، هو النغم الرقيق الهادىء في موسيقاها الخالدة ، الناتج من ضرب أوتارها العديدة المختلفة

اذن ليس الشر الا ظاهرة من ظاهرات الوجود الضرورية كان لا بد منها ليبقى للوجود قوته وانتاجه وجماله وتوازنه ، وليس هو من الوجهة الفلسفية البحتة الجهة المضادة للخير ، كما ان النقص — كما يقول « تاجور » ليس هو نفي الكمال أو ان النهايه تضادها

اللانهاية ولكنها جميعا ، ليست الا كما لا يبدو موزعا ، واللانهاية تظهر في خلال حدود وتخوم !

لا الخير ولا الشر غريزة فينا كامنة في نفوسنا من يوم ان ولدنا وظهرنا في هذا الوجود ، وليس الانسان طيباً بطبعه كما يقول صاحبنا (روسو) حينما أراد أن يبرىء أخاه الانسان من الاستعداد للشر ويسند كل هذا الى الاجتماع الذي أفسده بعد صلاح ، وفي هذا ولا شك اسراف أي اسراف من صاحبنا (روسو) الذي أراد أن ينسب كل الشرور الى المجتمع الأنساني حتى اشتط في الاتهام وسوء الظن وكاد أن يؤله الانسان وينزهه عن الخطايا ويعصمه من الشرور ، ولذلك نصحه بالركون الى الطبيعة وحدها ففيها النجاة من الشر ومن الرذيلة ، ثم قال اننا ما صرنا الى ما نحن عليه الآن الا لبعدنا عن امنا الطبيعة فنحن في الاصل أخيار والجماعة أو المجتمع هو الذي جعلنا أشراراً ! !

يريد روسو منا أن نكون في مثل وحدة حي بن يقظان أو روبنسن كروزو . فهل لو تأتى لنا هذا اللون من الحياة نكون سعداء كما يصور لنا روسو ؟

وهل اذا أمكننا نحن أن نهرب من المجتمع الانساني وأن نركن الى الطبيعة وحدها ، فهل نكون في هذه الحالة قادرين على تحقيق آمالنا وبلوغ أطماعنا ؟ ليس المجتمع وحده هو الذي يفسدنا بل نحن شركاء أيضا في الجريمة ، وليس المجتمع هو الذي يدعونا اليه

بل نحن الذين نسعى اليه ونلح في السعي ، لأننا لا يمكننا مطلقا أن نحيا حياة راضية انسانية محترمة بعيدين عن الاجتماع الانساني

يقول روسو ان عنصر الخير هو الاصل فينا ، أما عنصر الشر فعارض جديد ونزيل علينا ، وفي الحق حسبما نعتقد ونؤمن اننا لسنا أخياراً في الاصل كما يقول روسو ولا أشرارا أيضا كما يريد البعض أن يقول ، واننا يوم نولد ونظهر في هذا الوجود لا نعرف ما هو الخير ولا ما هو الشر ، ولكن المسألة اننا نولد ومعنا غرائز تنمو معنا وتكافح معنا الحياة كما نكافح ، وهذه الغرائز ليست الا قوى نستعين بها على العيش وعلى الحياة ، وهذه الغرائز دائما في كفاح مع بعضها وفي تفاعل مع اخواتها ، وتتنازع على البقاء كما يتنازع الاحياء جميعاً فالاقوى منها يتغلب على القوى ، والقوي يتغلب على الضعيف ، وهذه الغرائز ولا شك تتكيف وتتوجه وتتلون بحسب روح الجماعة وبحسب التربية وبحسب البيئة الزمانية والمكانية معاً ، وفي كل منا جانب من الخير وجانب من الشر يتنازعان دائما الانسان ، والظفر أخيرا في جانب الاقوى كما هي سنة الوجود ، ويبدأ تاريخ هذا النزاع من أول مظهر للوجود الأنساني ، حتى جعلت الامم القديمة من مصريين وفرس وغيرهم لهذين العنصرين المتنازعين آلهة ، فعندهم آله الخير وآله الشر ضمن آلهتهم المتعددة !

ولقد ذكرنا قبل الآن اننا من الوجهة الفلسفية البحتة لا يمكننا أن نقول ان الخير نقيضه الشر كما نتجاوز في ذلك في التعابير اللفظية

والبيانية ، كما انه لا يمكننا مطلقا أن نقول ان الابيض نقيضه الاسود أو ان الفضيلة تقابلها الرذيلة أو ان الحب يقابله البغض ، فليس كل هذا في الحق الا تجاوزا منا وتعابير اصطلاحية ورثناها أو تساهلنا في ترددها ، وليست كل هذه الظاهرات الا مسائل اعتبارية نسبية تخضع لمبدأ النسبية الذي يخضع له الوجود جميعا أو على الأقل الوجود الانسانى ، فلا يمكننا مطلقا أن نجزم بأن هذا العمل خير وذاك شر ، فلا الخير خيراً محضا ولا الشر شراً بحتا ، وقد يكون خير في شر ، وقد يكون شر في خير ، وقد يكون العمل الواحد خيرا وشرا معاً ، وقد يكون لا الى الخير ولا الى الشر ، وقد يكون خيرا فى عصر وغير خير في عصر آخر ، وقد يكون شرا لك وخيرا لي ، مما يثبت ان الحياة تمنع منعا باتا « الأطلاقية المحضة » (Absolutisme) وان العقل الانسانى يقوم بوظيفته في حدود النسبية وحدها ! ! !

ونعود الآن الى موضوعنا : هل الفلاح خيّر أو شرير ؟ وأي العنصرين أغلب فيه على الآخر ؟ وما العلة في ذلك التغليب ؟

كل ما ذكرناه الى الآن عن نفسية الفلاح كانت نسبة الخير فيه أكثر من نسبة الشر ، أي اننا ذكرنا وشخصنا الناحية الخيرة فيه ، ونحب الآن أن نتحدث عن الناحية الاخرى اتماما للحديث واستيفاء للموضوع ، ويلاحظ اننا لم نشأ التعمق العلمي التحليلى في بسيكلوجية الفلاح وتشخيص « عالمه الباطني » فى هذه الرسالة التي

كما قلنا كثيرا تأخذ صبغة « الاحاديث » أكثر مما تأخذ صبغة التحقيق العلمي !

يبدو لنا من ملاحظاتنا العديدة في ريفنا ان الفلاح فيه جانب كبير من الشر قد يكون خطرا فاتكا حين يساق الى ذلك مكرها بدوافع خارجية ، فهو في معظم الاوقات هادىء مسالم وديع ، ولكن اذا اندفع الى الشر تكشفت عنه طبيعة فاتكة ونفسية خطرة ، فهو ينقاد الى الشر لأتفه الاسباب فلربما لان جاره في الغيط اقتلع قليلا من زرعه أو اعتدى على مجرى الماء الذي يصل اليه ، أو لان جاموسة جاره أو بقرته اعتدت على « جرنه » أو على زرعه في غيطه ، بل ربما لان صبي جاره اعتدى على صبيه وهما يلعبان في الحارة ، أو لان امرأة من نساء القرية تشاتمت أو تشاجرت مع امرأته أو لان غيره مدين له ولو بخمسة غروش لم يسددها ، أو لان أحدا قد بلغ عنه يوما وهو يسرق أو قال عنه نميمة ، أو لأن أهل جاره قد سرقوا منه فرخة أو بطة

ولقد رأيت يوما — أستغفر الله — بل لقد سمعت ان فلاحا رأى غنم غيره تعتدي على جرنه حيث قمحه وشعيره ، فحدث النضال والتجاذب بالحديث ، ثم ان بيّت كل للآخر الشر وتربص به الاذى ، وفي الساعة المحددة تقابل الخصمان وحدث التصادم ، فضرب احدهما الآخر بالنبوت فشج رأسه ، فما كان من الثاني وهو يتضرج بدمائه الحارة التي خضبت وجهه الا ان بحث عن آلة يدافع

بها المعتدي ، فلم يجد خيراً ولا أسرع في الاجهاز على خصمه الا فأسه الحادة ، ولقد بلغت أيضا بأن زوجا أساء الظن بزوجه فلم يجد طريقا الى تأديبها — ان كانت مذنبة — إلا أن سحب نبوته وأثخن تلك الزوج ضربا بالعصا حتى هشم أحد ذراعيها وأشلّه عن الحركة وهو باسم فرح بانتقامه الموهوم ، وهو مع هذه الروح المجرمة لم يستطع أن يثبت قالة الناس فيها كما يدعى ، ثم علمت أيضا أن امرأتين تشاتمتا على أمر يخص زوجيهما ، وأذكر أنه هذا الامر هو أن كلاً منهما أخذت تسب الثانية في عفافها فلكيدها أخذت تتهمها أن زوجها نفسه هو الذى داس شرفها وأتى معها فعلا غير شرعي ، وبعد التشاتم بالكلام قامت كل منهما للاخرى وسحبت النبوت وطحنتها به كما يفعل الرجال ، فترى هنا أن الغيرة النسائية التى هي من أخص صفات النساء نسيت نسيانا تاما فى سبيل الكيد وحب التشفى والغلبة

تلك الصور المقتضبة الموجزة من نفسية جانب كبير من الفلاحين والفلاحات تعطينا فكرة ولو تقريبية جانب الحق فيها أقوى من جانب الباطل كما نعتقد ، عن انقياد الفلاح لعوامل الشر ، هذا اللون الأحمر القاس الخطر ، ويبيح لنا هذا أن نقول أن الفلاح اذا طاوع الشر فعسير عليه أن يعتدل أو يترفق في شره بخلاف معظم اخوانه المدنيين ، وحسبك انه لا يكافح الا بالنبوت أو الفأس أو البندقية

ثم هناك شيء آخر يمكننا أن نستنتجه من هذه الصورة الاخيرة ،

وهو أن العدوى الشريرة قد انتقلت من الرجل الى المرأة ، ومن الطبيعي كما قرر العلماء أن عدوى الشر أسرع خطي من عدوي الخير ، فظهرت المرأة التي كنا نحسبها ولا نزال نحسبها ملاك رحمة ورسول لين ونعمة ، في مظهر اللبؤة الضارية التي لا تعتدل في البطش ولا تترفق في الفتك ، حتي كدنا نؤمن بأن رقة المرأة وليونة النسائية ورخاوة الانوثة قد استخفت في الريف بين الكثير من النساء وغادر البيت ملاكه وسكنه الشيطان !!!

والفلاح اذا ما اعتزم الشر والاذى بغيره لا يهدأ له بال ولا يطمئن له قرار حتى يرضى شهوة انتقامه التي تهيمن على كل شهواته ، فكثيراً مايعتدي على زرع غيره تشفيا وكيدا فأما أن يقتلع زرعه حتى ييئسه من المحصول والنتاج ويضيع تعب عامه وعصارة دمه وماسكب فيه من عرق الجسم ، وأما ان يطلق لماشيته عنانها فتعبث بزرعه حتي تأتي عليه ، واما ان يشعل النار في جرنه حتى لا يبقى له محصولا شتويا يقوت به نفسه واولاده ونحن لا نجهل بأن هذا المحصول الشتوي هو تكأة الفلاح وسنده في العام ، منه يعيش ومنه يبيع جزءا منه ليبتاع به حاجاته المنزلية ، واما ان يسمم ماشيته حتي يحرمه نفعها له في العمل واستدرار اللبن منها ويحرمه أيضا قيمتها أو لحمها ، وماشية الفلاح كما نعلم هي كل حطامه من العيش وثروته في الوجود وسنده فى العمل وساعده حين اشتداد الازمات المالية او حين تستحكم حلقات الحجر وأوامر (المحضرين) ، وأما ان يلجأ

الى السرقة فيسطو على داره أو على ماشيته او على نورجه او محراثه وهذا او أقل منه هو كل ما يملك فلاحنا المسكين

ولقد شاهدت جماعة من الفلاحين أحبوا ان ينتقموا من خصوم لهم فى قريه ، فأفضي تفننهم المبدع في الانتقام الى أن سطوا ليلا على جرن خصومهم حيث الغلال جاهزة متوفرة ومعدة للتخزين فأخذوها ثم بعثروها بددا في الحقول التي بجوارهم حتي لا يمكن بعد ذلك لخصومهم ان يستجمعوها ويفيدوا منها ، وتلك أكبر رزيئة لو يفلحون وهيهات ان يفلحوا ! !

هذه الصور من الفلاح تريناجانبه لاسود بعد ان رأيناجانبه الابيض وتظهر لنا أنه يتخذ كل الطرق للفتك بخصمه حتي ولو أدى الانتقام الى الفتك بحياته نفسها .

قد يظهر ماأتينا به هنا من الصور عن فلاحنا لبعض القراء تصويراً ظالما أو حقيقة مرة كما يقولون ، فما أدلينا به يشتم منه رائحة الدم أو يلحظ منه الروح الشرى الخطر للفلاح ، ويعلم الله أننا لم ننتهج في هذه الرسالة الا الحرص على الحق وعلى رضاء الضمير فقط دون أي نظر الى اعتبارات أخرى سواء أكانت قومية أم لم تكن ، فانا بما نأتي به من الصور لا نبغي الا أن يكون العمل الذي أخذنا أنفسنا به كاملا أو قريبا من الكمال ، ولن يكون الكمال الا اذا أرضى الحق وقدس الضمير !

ولكن ما الدوافع التي تدفع الفلاح الى هذه الشرور ؟ نحن

لا نشك مطلقا في أن للبيئة القروية بكل محيطاتها ومؤثراتها وللوراثة ولعدم تربيته وتعليمه ولسوء حكم الحكام وسياسة الملاك ولمرور عصور الظلم والجبروت يدا لها خطرها وأثرها في تكوين وفي تنمية هذا الروح الشري ، فلو كان القدر يسعده بنعمة التعليم ولو تحيط به ظروف خيّرة ، ولو يعيش في أوساط راقية مهذبة مستنيرة ولو يهبه الله حكاما وملاكا يخافون الله ويعدلون ولا يظلمون ويحرمون ، اذن لساعد كل هذا على أن يشذب من شره ويهذب من خلقه وعلى ان يقلل من اجرامه ، واذن لاستراح القضاة وعلماء الاخلاق والاجتماع وزعماء الاصلاح من التفكير في علاج لهذا الوباء الفاشي ولهذا الروح الاجرامي ، ولكان الريف المصري مستراح المكدودين حقا الذين يطلبون الدعة والأمن والهدوء ، ولأمن الناس ولو قليلا والى حد ما على أرواحهم المهدده بسيف الروح الانتقامي المهيمن على كثير من فلاحينا والذي يظلم بسطوته وبرهبته سماء الريف الصافية فلا تعود تسبح فيها الملائكة ولا تعود تبعث لأهل الارض نورا وحكمة وسراً يستمدون منها القوة على العمل والقدرة على الكفاح والعون على الايمان .

واذن لبطلت دعوى دعاة الاستعمار في أن الفلاح المصري راض عن حكمهم مغتبط بعدالتهم مهلل لسياستهم مؤيد لاستلابهم حق شعب في الحياة وفي الحرية لا لسبب إلا لأن القوة تريد ذلك ولأن النفوس الجشعة تريد أن ترتوي وأن تأكل وتشبع ، واذن

لأراحونا بذلك من اليأس فى اصلاحه حتى لا نضطر أن نذهب مع القائلين : اليأس احدى الراحتين ! ولكن اليأس لن يكون وفى مصر اصلاحيون وفى مصر شعب كريم ينصر قضية الاصلاح وعملية التطهير والاحياء !!

نعم ! تروعنا هذه « الشرّية » فى ريفنا لأنها تجعل الحياة هناك عند الكثير غير مطمئنة وتجعل لأولئك « الجزارين » واللصوص فضاء واسعا يمرحون فيه وعملا سهلا يضمنون منه ارزاقهم بعيدين عن أيدى القضاء وانتقام العدالة ، ففى الليل واذا ما تلفع الوجود بأستاره وبعباءته السوداء واذا ما سكن كل حي وجلس الزوج الى زوجه وأولاده يستمتعون بحلاوة العيش وبنعيم الحياة ، تخرج جماعات السفكة والمجرمين والجزارين تطلب قوتا تأكله من أرواح الناس ومن جسومهم الطريئة الغضة ومن عويل النساء وبكاء الاطفال وصراخ العجزة ، تخرج مسعورة كالكلاب الجائعة الذي يمسها شيء صوب الرجل الذي تزعم أن لديه مالا يملأ جيوبهم وبطونهم ويريحهم من عناء البحث عن العيش من طرق العمل الشريف ، فان وقف أحد في طريقها يذود عن حياته الغالية التي منحه اياها الله والتي لا يجوز لأحد أن ينتزعها منه الا الله ، فليس أيسر لديها ازاء ذلك من البلطة يشج بها رأسه أو من البندقة تخترم صدره وحشاشة قلبه

ولا تزال للآن هذه الجماعات الشرية منتشرة في نواح كثيرة

في ريفنا وهي منظمة تنظيما متقنا ككل الجماعات المنظمة، فلها رئيس ولها وكيل ولها أعضاء، وقد تكون لها جمعية أو لجنة تنفيذية وأخرى فرعية أو عامة والرئيس هو الذي يديرها وهو الذي يوجهها نحو السلب والقتل، والأعضاء كلهم متضامنون يشعرون جميعا بشعور واحد يؤلف بينهم ويجانس بين روحهم وهم مسئولون أمام الرئيس العام الذي له حق توقيع العقاب بمن يخالف مبادىء الجماعة أو يخرج عليها أو يذيع أسرارها، وليس لأي عضو اذا أمر بأمر أن يتصل منه أو يتنحى عنه مهما جل خطره وفدح شأنه. ولهذه الجماعات طرق مدهشة في تنفيذ مبادئها وفي الهرب من يد الحكام فلديها أحيانا ألبسة رجال البوليس ولديها خيول تشبه خيولهم وبزته الاردية يسخرون من البوليس ويرهبون الناس ويتخذونها درعا يقيهم الضبط ثم الزج في السجون، ولها طلائع أو جواسيس تخبر الباقي عن العثور على جهات جديدة يمكن لهم أن يغنموا فيها شيئا، ولهذه الجماعات مراكز ادارة يعقدون فيه جلساتهم، فاذا ما اعتزموا على شيء في ليلة ما بثوا رسلهم ونشروا جواسيسهم وعينوا رجالا منهم يقفون فى منافذ القرية ومخارجها ومداخلها ليقوموا بالحراسة ثم عينوا آخرين للعملية الخطرة المهيبة للسلب والفك والتعذيب بعد أن يكونوا قد ضمنوا عيون الناس ونوم كل القرية الهادئة الى حياتها الفطرية الطيبة. فاذا ما انتهت العملية ونفذوا أغراضهم واستراحت

ضمائرهم — ان كانت لهم حقا ضمائر — وزعوا الاسلاب والغنائم لتشبع كل نفس ويتورم كل جيب وبطن

هذه الجماعات الشريرة المنظمة هذا التنظيم الذي رأينا قد تتألف من بعض العاطلين الذين لا عمل لهم أو من بعض سذج مساكين انخرطوا في الجماعة بدافع الاغراء والايهام أو من الذين اتخذوا السلب والقتل وانتهاك الحرمات وترميل النساء وتيتيم الاطفال وتخريب البيوت وهدم الأسر والعائلات حرفة ومهنة لهم يتجرون فيها ويرتزقون منها، فكما يرتزق المحامي من مهنته والطبيب من عمله والموظف من وظيفته، كذلك يرتزق هؤلاء المجرمون المحترفون من الدماء المسفوكة والارواح المزهوقة والاشلاء المبعثرة والانات الصاعدة والزفرات الحارة والنفوس المصدورة والعيون المحترقة من لهيب الاسى والفجيعة لا من قطرات الدمع الصافية !!! وهذا الصنف الاخير من المجرمين هو الأغلب والاقوى والأجلى خطرا في هذه الجماعات الاجرامية ، فاذا تصورنا الحالة الاقتصادية للسواد الغالب في ريفنا أمكننا بكل سهولة ان نفهم كيف يوجه المال هؤلاء المجرمين المحترفين الى حيث يريد ، فاذا أردت أن تنتقم من خصم لك كبير انتقاما نهائيا لا يعود منه الى هذا الوجود ، فليس عليك الا ان تضع يدك في جيبك وتدسها في يد أحد هؤلاء المحترفين الذين أصبحت عندهم صناعة القتل والسفك وقبض الارواح سهلة هينة مريحة كما تصبح صناعة الكلام سهلة للمحامي المقتدر وصناعة

الكتابة سهلة للكاتب الكبير ، واذا ما وصل المال لليد الأثيمة ضمنت رأس خصمك منتزعا من جسمه في راحة يدك فتفعل بها ما تشاء لك الخصومة !

هذا اللون من الاجرام وذلك الضرب من الشر الخبيث ، ونقول خبيثا لأنه قد يكون هناك شر طيب نافع . هذان اللونان الخطران من الاجرام ومن الشر يتفاوتان قوة وضعفا ، فلسنا ننظر الى السارق كما ننظر الى القاتل ولسنا نحكم على صاحب السرقة الكبرى بما نحكم على صاحب السرقة الطفيفة الصغرى ، ولسنا ننظر الى جريمة القتل بنظر واحد فأشد المجرمين في رأينا خطراً وأولاهم بالضرب على الأيدي وبالقصاص والعقاب البالغ أقصى حدود الشدة هم أولئك الذين تخذوا الاجرام « حرفة » وتخذوا أرواح الناس وحيواتهم تجارة ومرتزقا ، هؤلاء تشدد عليهم النكير ونناشد رجال الحكم والقضاء فى مصر ألا تحركهم نحوهم عاطفة شفقة أو رحمة لأنهم جزار و البشرية وهؤلاء هم الذين نحب أن تتوجه اليهم جهود الاصلاحيين والمطهرين حقا ، حتى يبقى للريف هدوءه وطمأنينته وحتى تعيش مصر في دعة وأمان وحتى يستريح الناس ويطمئنوا على أرواحهم وحيواتهم

أما حوادث السرقة العديدة في الريف فلقد يكون الباعث الأقوى على معظمها هو فقر الفلاح هذا الفقر المدقع الذي عرفناه والذي لا يتناسب مطلقا مع الغنى الواسع العريض لأصحاب

الثروات والقصور والضياع . وقد يكون العامل النفسانى عامل الأسى والنقمة والحسد والغضب والألم لتلك الظروف القاهرة التي جعلت غيره يتوسد الحرير وجعلته هو يفترش المدر والحصى وجعلته يقضى طوال حياته في الكد والشقاء واستدرار الثروة لأصحاب الارض وجعلت غيره هانئا مطمئنا الى حياته الرغيدة الرافهة وثروته العريضة الواسعة التي قد يكون لم يدفع من ثمنها دانقا أو سحتوتا بل ورثها بقية من بقايا « عصر الاقطاع » عصر المثل الاعلى في التعسف والاستبداد واستلاب الحقوق والعبث بالناس وبحيواتهم ، هذا العصر الذي كاد أن ينقضي من أوربا وتندثر معالمه ولكن لم يستتح أن يظهر في مصر حتى في القرن التاسع عشر قرن العلم والاختراع ! فاذا أضفنا الى كل هذا سوء سياسة الحكام ومعاملة الملاك له تكشف لنا بعض التعليل الحق لحوادث السرقات العديدة التى يقوم بها ، فهو يريد أن يعيش كما يعيش الناس ، وبما أن أولى الأمر حرموه أن يعيش عيشا كريما شريفا ، عيش انسان حر يشعر بأن له حقا في الوجود ونصيبا في الحياة ، فقد بحث عن طريق آخر ليعيش ولو انه طريق معوج الا أنه طريق الى الحياة ، والحياة ثمينة عزيزة !!

ماذا يفعل ذلك الفلاح الذي يأتى عليه الليل فلا يجد لأولاده ما يقدمه لهم من العشاء وقد رآهم يتضورون من الجوع ويشكون برح الفقر ومرارة الأسى وهم لا يزالون بعد فى سن الطراءة والرخاوة ولم تعرف بعد عيونهم معنى البكاء أو الدمع ، وهو يعرف أن هؤلاء

الاطفال الصغار أمانة في عنقه بل فلذة من كبده وقطعة من نفسه وانه مسئول عن حياتهم أمام الله وأمام ضميره ، ماذا يعمل هذا المسكين اذا سمع أناتهم الموجعة ونفثات صدورهم المكلومة ورأى قطرات الدمع تسح على خدودهم النضرة عصارة لقلوب آسية ونفوس متألمة تطلب العيش وتستجدى الحياة ، ؟ ماذا يعمل هذا المسكين وقد عز عليه الطريق الشريف الى العيش وقد شح عليه اخوانه وضن عليه الصديق وتنكر له الزمن وكسر المالك خاطره وصدع قلبه وضيق عليه الخناق ؟ ليس لديه إذن ليعيش وليعيش ابناؤه الصغار الا ذلك الطريق المعوج وتلك الوسيلة الدنيئة الساقطة : السرقة

وماذا يعمل ذلك الأب الذي أتى عليه العيد وألح عليه أولاده الصغار في شراء ملابس جديدة لهم يتزينون بها وهم في هذه السن المرحة اللاهية بين اخوانهم ورفاقهم حتي لا يطأطئوا رءوسهم ذلة وانكسارا اذا وقعت عيونهم على اخوانهم فى القرية من الاطفال وهم يلبسون جلاليبهم الجديدة البيضاء والحمراء ويجرون ويلعبون

ثم أرجو أن تتصور معي أيها القارىء الكريم استعداد اطفال القرى بل شبابها ورجالها ونسائها الى العيد ، وتصور معي انه يومهم الأكبر الفرد ، يوم راحتهم الوحيد من عناء العمل ، ويوم يجتمع الاب والام وحواليهما هؤلاء الاطفال والابناء الاعزاء وقد يعز عليهم مثل هذا الاجتماع العائلي المقدس السعيد في الايام الاخر

ثم تصور معى انهم يحسبون له الاشهر والايام ليخرجوا من

ديارهم في ثياب جديدة وعلى وجوههم ابتسامة البشر والتحية للعيد، واذا فرغت من هذا التصور ورسم هذه الصور فى ذهنك وخيالك، عد معى ثانيا وتصور أطفالا صغارا لم يعرفوا بعد معني للالم ولم يتذوقوا بعد طعما للشقاء، وخرجوا صحيفة بيضاء الى الوجود تجهل مافى الكون من ألم وما فى الحياة من ضنك، وما للآباء من مسئوليات وواجبات، ومايتحملون فى سبيل أبنائهم من ضنك العيش وفداحة الاعباء، تصور هؤلاء الصغار يأتون الى ابيهم المسكين الفقير باكين شاكين لان العيد قد أوشك أن يأتي ولم يحضر لهم بعد ثيابا جديدة مع أن غيرهم من رفاقهم الاطفال قد ابتاع لهم آباؤهم من السوق ما سيخرجون به يوم العيد مرفوعي الرءوس فرحين مرحين، ثم تصور معي أن هذا الاب الفقير ليس عنده في داره ما يأكله يوم العيد فضلا عما يريد أن يشترى به لاولاده مايكسو جسومهم العارية ويرضي قلوبهم الباكية ونفوسهم الشاكية !

من القسوة كل القسوة أن نحكم على هذا الصنف من الناس ونحن مستمسكون بمبادىء الفضيلة والصدق والامانة والشرف وما اليها جميعا، ومن القسوة كل القسوة بل من البعد عن الحق وعن العدالة كل البعد ان نكون قضاة بعيدين عن الحياة وعن المجتمع وعن البشر، جاهلين الظروف والعوامل والنواميس السرية المختلفة الغامضة التي تقود الناس الى اعمالهم واللصوص الى سرقاتهم مضطرين كارهين، واذا تجرد القضاة وهم على كراسي القضاء من مبادىء

الواقع والحياة وطبيعة الوجود وتقدير نفسيات الناس وظروف الاحوال وتصوير ان الناس ناس لاملائكة ولا آلهة، ثم استمساك القاضي بمبادىء الخيال ونظريات الفضيلة والعلماء والفلاسفة وحبس نفسه عند نصوص القانون ومختلف الكتب والمراجع لم يسلم حكمه من البعد عن الحق وعن العدالة وعن الروح الانسانى !!!!

لسنا بذلك القول نشجع ونذيع مبادىء « المدرسة الميكيافيلية » فلقد نكون اشد الناس عداء لهذه السبل الوضيعة من العيش، ولكننا نبحث عن هذه البسيكاوجية الشريرة في الفلاح، ونحاول جهد استطاعتنا أن نرجعها الى مصادرها الاولى ونعثر على تعليلها الحق كما نعتقد وكما نؤمن ولكننا نحس ونشعر أن « المبادىء الانسانية » وناموس الحياة وبسيكاوجية الشرير واللص يجب أن يكون لها الاعتبار الأول، فاذا نظرنا الى حادثة سرقة أو قتل فقبل أن ننظر فيهما يجب علينا أولا ان ننظر الى « الانسان » الذى ارتكبهما لانه يهمنا اولا اصلاح « الانسان » ودراسته لنتمكن من اصلاح الجماعة ودراستها .

ثم مالنا نستنكر هذه الحوادث من الفلاح ونقسو فى الحكم عليه وقد عرفنا جانبا من حياته ومن ظروفه ومن تربيته ومن اوساطه ! أليس الطبيب سارقا حين يستبيح لنفسه أن يأخذ أجره من المريض وهو يعلم جد العلم بأنه لا أمل للطب فى شفائه ؟ أليس التاجر سارقا حين يستبيح لنفسه ان يكسب في صنف من تجارته ضعف وأضعاف ثمنه، وحين يغش في المكاييل والموازين سعيا وراء الكسب الحرام

الدنيء ؟ أليس المعلم لصا حين يتهاون ويفرط فى واجبه نحو تلامذته ثم لا يأنف ولا يستحي من ان يقبض في اخر الشهر مرتبه كاملا موفورا ؟ أليس المحامي لصا حين يعرف ان القضية لاشك خاسره وانه بالدفاع فيها انما ينصر الباطل على الحق والكذب على الصدق والرذائل على الفضائل والالحاد على الايمان والعهر على الشرف، ثم لا يأنف ولا يستحي ان يمتص دماء موكله ؟ وما الفرق بين الفلاح الذى يسرق جاموسة او بقرة ليعيش وبين الطبيب أو التاجر أو المحامي أو المعلم الذين يسرقون الرحمة والفضيلة والكمال والامانة والوفاء ؟ وأى السرقتين أفدح مصابا وأضر بالعالم وبالانسانية : الجاموسة أو الامانة ، البقرة او الفضيلة : ؟؟

ألأن الاول سرقته «محسوسة» وسرقة الاخرين «معنويه» نسمي الاول لصا دنيئا ونسمي الاخرين أطهارا بررة ؟ألأن الاول شاء له قدره المنحوس أن يضبط تحت يد القانون وان يزج في الاقفاص ولان الاخرين يهربون من الوقوع فى قبضة العدالة نسمى الاول من طراز السفلة ونسمى الاخرين من طراز الشرفاء ؟

ولكن هكذا أرادت سنة الحياة ! وهكذا توزعت الالقاب والنعوت علي الناس ! وهكذا شاءت الاقدار ان يكون بعض من الناس لصوصا سفلة والبعض الاخر اطهارا بررة ! اذن فلتكن ارادة الحياة ، ولتكن مشيئة القدر ! ولنسلك كما يسلك الناس !

وليس لتخفيف هذه الحوادث في ريفنا الا العمل على تخفيف

آلام الفلاح وازالة شكاياته وضمان حياة الراحة والرغد والنور له وتمكينه من أن يعيش حرا مطمئنا الى العدالة شاعرا بالرحمة وبالحرية وبحقوقه وبواجباته، وقبل كل هذا وذاك تعليمه وتربيته لأنه لا يقوم اصلاح كما نعتقد ونري بدونهما ، فلو فعلنا ذلك لاطمئن الفلاح الى عيشه الهادىء ولعكف علي واجباته راضيا مستريحا عن نفسه وعن عمله ولفهم حقه وواجبه ومركزه فى العالم ونصيبه في الحياة، ولرأى النور نقيا طاهرا لادخل ولاضباب ولاظلام فيه ولاشترك معنا في كل عمليات الاصلاح ونواحي الانتاج والخصب والخير !

ذكرنا قبل الآن كلمة أو صورا عن الاجرامية الخطرة في فلاحنا وشددنا النكير وناشدنا رجال القضاء والحكومة ليقضوا القضاء الحاسم علي فئة المجرمين المحترفين » أو كما يسميهم البعض « المجرمين العاديين » والا تأخذهم فيهم شفقة أو رحمة وذلك لسلام العالم وطمأنينة مصر ورخائها وأمنها ، وبهذه المناسبة نود أن نقول أن معظم الجرائم فى الريف يكون الباعث عليها روح الانتقام ونحن نعلم أثر وخطورة هذا الروح الفاتك ونعلم أنه أقوي الغرائز الانسانية بعد غريزة حفظ النوع . ونعلم تشبع كثير من عائلاتنا الريفية ومن الافراد الفلاحين ومن كبار العشائر والاسر ، نعلم تشبعهم وخضوعهم لهذا الروح الانتقامي الفاتك الرهيب ، ونعلم أنه لايزال فى ريف مصر بحريها وصعيدها — وفي الثاني أغلب وأقوي — عامل العصبيات المختلفة قويا مكينا فتكاد لاتري جناية من الجنايات الريفية يخلو

الباعث عليها من « العصبية » ومن العداء العشيري ومن الروح الانتقامي وليد الماضي السحيق ووريث الاحقاد الدفينة والاحن المحبوسة ،

وكنا قد سمعنا أن الحكومة عينت وألفت لجنة المصلحين لتصلح مابين العائلات والعشائر والعصبيات فيما يحدث بينهم قبل أن يعرض الأمر على القضاء ليقول فيه كلمته الحاسمة وذلك لتخفيف ويلات الناس وآلامهم ولحفظ العائلات والعشائر من أن تتمزق وحداتها وتنفصم عراها وللتوفير على المتقاضين من مال ومن جهود ومن وقت اذا ما احتكموا للقضاء وللعمل جهد المستطاع والى حدما على تصفية النفوس من الاحن والعداوات القديمة والسخائم الدفينة وتحل محلها الصفاء والود والوفاق والحب ، فمالنا لانرى لهذه اللجنة المزعومة ولهذه اللجان المحلية الفرعية وجودا محسوسا ولا صدى مسموعا ؟ هل قدر علينا طوال حياتنا — حتى في هذا العصر — أن نقضي أعمارنا كلها فى تأليف لجان وعمل جمعيات وانتخاب رؤساء وأعضاء وتحضير مواد وتحبير أوراق وعقد جلسات ثم نرهف بآذاننا أو نفتح عيوننا ونعلي رءوسنا لنسمع عن صدى هذه اللجان والجماعات والجلسات ولنري آثارها وأعمالها ومدى خطواتها فلا نسمع شيئاً ولا نبصر أثراً ؟ أتقضي أعمارنا عبيد المظاهر والأقوال والخطب ؟؟؟

لقد آن أن نبحث فى طمأنينة الناس وفي راحتهم الداخلية وفي العمل على الصفاء والحب بدلا من الضغن والكره حتي تتآلف وحداتنا

المتنافرة وتتآزر كتل نشاطنا الاجتماعي على خصب مصر وخيرها وسلامها وحريتها ، فعسي رجال الحكومة يجدون لهذا الروح الانتقامى في ريفنا ولهذه العصبيات ولهذه الشرية علاجها ودواءها بدلا من ضياع جهودهم واوقاتهم في القاء وعود وأعداد خطب وضمان حياة الرغد والرفاهة والطمأنينة لهم وحدهم ! !

قد يبدو ما أتينا به من الصور حين تحدثنا عن النفسية المجرمة في الفلاح قاسيا منكرا ، وقد يتصور للبعض أن هذه الاعمال التي يرتكبها من الوحشية بمكان ومن الهمجية بحيث تتقزز منه النفس ، ولكننا نقول لهؤلاء : مهلا ! ورويدا أيها اللائمون والعذال ! !

لماذا ننظر الى الفلاح المصري هذه النظرة القاسية ولماذا نحكم عليه عليه هذا الحكم الذي فيه من القسوة ومن الظلم كثير ، ولماذا لانحكم هذا الحكم وننظر هذه النظرة الى الغربيين رسل النور والحضارة والخير والعدالة والمدنية والعلم والكمال في هذه الارض ؟

قرأت يوما فى جريدة السياسة من منذ سنتين لا أذكر بطريق الجزم ، أن ستة آدميين بشريين لا وحوشا ولا همجيين ، ستة أوروبيين متحضرين لا أفريقيين أو اسيويين متوحشين في بولنده أو تشكسلوفاكيا — لا أتذكر — عز عليهم الطعام في هذه الحياة العريضة الواسعة وضاقت بهم الارض على رحبها وسعة جنباتها فلم يجدوا غذاءهم وطعامهم ولم يستمرئوا خيراً من لحم بشريين مثلهم يجرى فيهم دماء البشر وتخفق بينهم قلوب تحب وتبغض وتميل وتحقد

كـكل قلوب البشر ، ستة من الحضر لا من البدو ، من أواسط أوروبا الراقية المتمدنة السيدة الحاكمة المتألهة لا من مجاهل أفريقيا أو بلاد السنغال أو غابات الصين وادغال الهند حيث فارقتها أنوار الحضارة وعزت عليها جميعا نعمة التعليم ، هؤلاء الستة البيض لا السود ولا الحمر اعتدوا على جماعة أوروبية مثلهم بيض أيضا وأكلوا لحومهم أحياء وتلذذوا بذلك اللحم البشري الطري ، وجري هـذا الدم البشري القاني الطاهر البرى ، حارا في دمائهم وفي قلوبهم وبطونهم الغرثي الظامئة الى الدم والى اللحم ، وياليت شعري هل انتظروا نضج هذه الفرائس والضحايا وشواءها أو هل تعجلوها وأبوا أن يصبروا فالتهموها حية شاعرة طرية مخضبة بالدم القاني الحي البرى ؟ وياليت شعري بماذا شعروا حين عبثوا بهذه الارواح المظلومة الحرة أبلذة الشبع من الجوع والارتواء من الظمأ أم بتلك اللذة الكبرى التي تنشيهم وتسكرهم . لذة انتصار المدنية الأوروبية على البربرية الاسيوية أو الافريقية ؟

هذه « الكانيبالزم » الأوروبية نحمد الله على أنها قد ظهرت في أجلى صورها وأبين مظاهرها في أواسط أوروبا المتحضرة لا في مجاهل أفريقيا المتوحشة أو أدغال آسيا البربرية كما يزعمون ، ونحمد الله كل الحمد على أنها اختارت لظهورها على الناس القرن العشرين قرن الحضارة الذهبية والمدنية السامية الراقية أو قرن النور والعرفان كما يقولون ، ونحمد الله أيضا على أنها اتخذت مسرحها ومشهدها

في الغرب الراقي المتمدن وبين الانسان الكامل العالمي لا في الشرق المنحط المتوحش وبين الانسان الجاهل الساقط كما يرغون ويزبدون!!

ونحن لا نذكرها هنا إلا لتسجيلها عليهم دون أن نعلق عليها أو نبني عليها أحكاما ونكتفي بأن نقول لهم وبخاصة « لرديارد كبلنج » شاعر الامبراطورية البريطانية صاحب القول المأثور الخالد: «الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا » ، ونقول لهذا الشاعر الكبير ولأصحابنا الغربيين الذين يتبعون قوله :

تلك دالتكم علينا وهذا وسامنا الشريف نعلقه في فخار وفي كبرياء وتيه على صدورنا الكبيرة الشريفة ليدحضا فريتكم الباطلة وكذبتكم الشنعاء

وليطامنا من رءوسكم التي تركبونها عتوا وصلفا ، ونقول لهم أخيراً : لسنا وحوشا ولسنا « كانيباليين » نأكل لحم البشر طريا ونشرب دمه جاريا !!

* * *

نريد الآن ان نفي بوعدنا حيال القاريء الكريم حين تحدثنا عن هذا الصنف من السعادة الذي يشعر به الفلاح المصري في أطواء نفسه وفي خبايا قلبه رغم ما يلاقي في حياته من نكد وعنت وفقر وشقاء وحرمان وجور واعتساف وعناء في عمله الطويل الشاق ورغم بعده عن حياة اللهو والحضر والنور واعتكافه في داره وفي حقله

وفي قريته الهادئة المنعزلة عن صخب الوجود وكفاح العالم وتطورات الحياة .

لا يمكننا ونحن نأخذ على أنفسنا القيام بالحديث عن هذا الفلاح المسكين ، عن هذا السيد الحق لمصر ، وبتصوير حياته ونفسيته في دائرة معلوماتنا واستطاعتنا ، لا يمكننا ونحن نقدمه للبيئات المدنية المصرية والعالمية والشرقية بخاصة لنخلق بذلك روابط الاتصال بينه وبينها حتي تزداد حياة مصر خصبا ونوراً وأنتاجا وقوة ، وحتى يفهم هذا الصنف المسكين من الانسان حق الفهم فيأخذ مجلسه الحق وينال نصيبه العادل من « حقوق الانسان » المكفولة الخالدة

نقول لا يمكننا ونحن نقوم بهذا الواجب الذي أخذنا أنفسنا به ارضاء للحق وحده واتباعا لنداء الضمير الباطنى العادل المنصف وشعورا بالمبادىء « الانسانية » الطاهرة النزيهة الطيبة ، الأأن نلمّ بناحية هامة من نواحي عالمه الباطني حتي تكمل الصورة بعض الكمال وتقرب من الحق ومن العدالة . . .

وهذا الصنف من السعادة الذي نزعمه لفلاحنا والذي هو العلة الحقة في رضائه عن حياته النكدة وعن عيشه الغض المظلم وفي سلواه وعزائه وهدوئه وراحة سره « كما يقولون » هو فى اعتقادنا « نعيم الجهالة » الذي نحب ان نختتم به هذا الفصل !

لايزال الناس جميعاً يختلفون في أوجه السعادات ويتضاربون

في آرائهم عن معني « السعادة » وسيبقى هذا الاختلاف وهذا التضارب مابقى الانسان على هذه الارض ، ومما لاشك فيه أن لكل انسان سعادته الخاصة به المتفقة مع تكوينه النفسى وعالمه الباطنى ومزاجه الذاتى وثقافته ، ومما لاشك فيه أيضا أن بغية كل انسان في حياته انما هي الحصول على السعادة التي يطمح اليها وتلك هي طبيعة الارادة الانسانية كما يقول « بوسويه » ، وهذا هو الباعث لكل الناس على العمل حتى الذين يسعون الى الموت كما يقول « باسكال » !!

واذا كان معنى السعادة الحق يكاد يكون كالطائر الشارد ، واذا كانت السعادات كلها على اختلاف صنوفها وتباين ألوانها لايمكن: أن نعرفها تعريفا ثابتا مرسوما أو نشير بأصابعنا وبأقلامنا عليها فى خرائط موضوعة او نحصر تعاريفها ونحددها ونحفظها كما نعمل في القواعد الرياضية والقوانين الطبيعية .

واذا كانت « السعادة » هذا اللفظ المبهم وهذا المعنى الغامض المرن قد تزورنا بين حين وحين بدون ان نشعر بها أو نحس بوجودها بيننا كما يقول « الاستاذ العقاد » ، واذا كانت السعادة كما نراها نحن هى عدم التفكير في السعادة أو هي « راحة السر » كما يقولون فماذا تكون سعادة الفلاح هذا الصنف من الانسان المنعزل عن العالم الصاخب والوجود المكافح الحي ؟

لا يمكننا مطلقا أن نجرد فلاحنا المسكين من الشعور بصنف من صنوف السعادة ولا يمكننا مطلقا أن ننكر عليه سويعات يجلس

فيها الى نفسه مطمئنا مستريحا وقد جرد نفسه الظاهرة من العالم الخارجي ومن شهوات الحياة ومطامع الوجود فعكف على نفسه ليعيش فيها ويستسلم للهدوء المطلق أو للفناء الحي ، اذن فلفلاحنا صنف من السعادة ولون من النعيم رغم عيشه عيشة لا تليق بكائن يحمل شارة النبل للمعنى النبيل السامي : « الانسان »

فى تلك القرية الهادئة الساذجة الحالمة في المستقبل الغامض المريب ، الخائفة من الغد المبهم المضبّب ، المتبرمة بعسف الحاضر وبمرارته وبصنوف شقائه وقسوته ، الباكية على الماضي الدابر وعلى عهود الطفولة الناضرة ، وجلالة القدم المهيبة وقت ان كانت الطبيعة لا تزال بكرا في غضارة شبابها وفي فتوة قوتها وفي بهر سحرها وجمالها وفتنتها ، وفى تلك الحقول الخضراء المترعة بالخصب وبالخير والتي شهدت طفولة التاريخ الانسانى وشبابه وكهولته ولم يمح جمالها وجلالها غدر الزمن ولم يضعف من قوتها قسوة القدر ، في تلك الحقول الشاعرة الساكرة المرددة أغاني الحب وتسبيحات القداسة الدينية ، وتحت تلك الشمس الطيبة الخيرة باعثة الدفء والحرارة والنور للعالم جميعا ، شمس الريف المحسنة الفاتنة الجميلة ، وفي غيبوبة هذه الجهالة النائمة المهيمنة على ريفنا وفلاحنا هيمنة القوة والسلطان ، وفى هذا الاستسلام المطلق لعسف السيد المالك وبطش الحاكم والخنوع والخوف والجبن والضعف واليأس والشقاء

فى كل هذا جميعا ورغم كل هذا جميعا يعيش فلاحنا كالحالم أو

كالساخر مغتبطا — شعر أو لم يشعر — بنعيم الجهالة التي يعيش فيها ، فماذا يعنيه اذا كان العالم الفلاني أثبت هذه الحقيقة ووصل الى هذا الاكتشاف الجديد الذي ستتطور من أجله توجهات العلماء ، أو أن النبات يشعر كما يشعر الانسان بل أكثر منه أو انه يعاني الحالات النفسية كما يعانيها الانسان وكما يقول السير جاجاديس بوز العالم النباتي الهندى الكبير أو ماذا يعنيه هو أن يعرف وأن يقول مع القائلين بأن الارض كروية أو متحركة فهل يحتاج إلا الى قطعة منها يسعد بها في حياته والى حفرة يدفن فيها بعد مماته كما يقول «جوت» ؟

ليكن البعد بين الارض والقمر ما يكون ، ولتكن الأرض أو الشمس هي المتحركة ، وليكن كل الكائنات الحية من أصل واحد ثم تفرعت أو من عدة أصول أو أن القرد والانسان من أصل واحد أو لم يكونا ، وليكن الدين يختلف مع العلم أو لم يختلف ، ولتكن الارواح خالدة أو فانية ، وليكن مناجاة الارواح حقيقة او كذبا ، وليكن لنا عقل واحد أو عدة عقول ، وليكن العالم سائراً الى الأحسن أو الى الاسوأ ، وليكن تفكير العلماء في ماهية السبرمان أو الانسان الكامل ، وليفكروا كما يشاءون فى اصلاح النسل أو ما يسمونه «باليوجنيـة» وليفكر الاقتصاديون فى البحث عن تنويع الثروات وازديادها والاجتماعيون في البحث عن اصلاح المجتمع الانساني من الانتكاس الذي يعيش فيه ورجال السياسة فى البحث عن تقليل الحروب وربط العالم جميعاً بميثاق السلم وتخفيف ويلات الشعوب ،

وليخترع المخترعون مايشاءون من اختراع انسان ميكانيكى يتكلم ويتحرك كما يريد ومن اختراع طريقة علمية لتجديد الشباب أو أخرى لأطالة الحياة ، وليبحث الباحثون في عمر الانسانية كما يشاؤن وفي علاقة هذا الشعب بذلك وهذه اللغة بتلك ،وأخيرا ليفكر الفلاسفة كما يفكرون وليبحث علماء الاجتماع والطبيعة والجغرافيا والتاريخ وفقه اللغات وعلماء الشعوب كما يشاءون، وليسر نظام الوجود كما يسير ولتكن هناك « حقيقة » سنصل اليها يوما أو لم تكن

فكل هذا لايجديه نفعا ولا يؤثر فى حياته النفسية الهادئة المطمئنة الراضية بجهالتها القانعة بالبعد عن حياة التفكير والعلم ، هل هو يأكل ويشرب ؟ نعم !هل هو يتحصل على جلباب يستر به جسمه؟ نعم ، فلماذا اذن يكد عقله فى التفكير وخياله في المطامح وهو يؤمن بأن حاله لن تتغير عما هي عليه ويؤمن بالاجدوى ولاغناء من تعلل النفس بالآمال والاحلام والخيالات ، ويؤمن أيضاً إيمانا مكينا قويا بأن العلم لن يغير حياته ولا نظام عيشه وان يفيده قليلا ولا كثيرا بل علي النقيض ربما يضعف من إيمانه ويزيد من شكوكه ويجعله حائرا مضطربا مذبذبا بينه وبين نفسه ، فهل كان العالم سيبطل عن الحركة وهل كانت الانسانية ستقف عن سيرها وهل كان الانسان سيغيب في الثري وهل كانت القيامة تقوم واليوم الآخر يعلن ورواية الحياة تسدل أستارها علي الناس وعلى الوجود لو لم تكن الكتب في المكاتب ولو لم يكن المعلم فى الصدور وفى الرءوس وفي المدارس

وفي الجامعات ولو لم يكن هناك علماء أو فلاسفة ؟ ماذا كان يكون مصير العالم والانسان لو لم تكن كتب أو علوم أو مدارس؟ أليس الناس كانوا يعيشون في عصور ماقبل التاريخ وفي عصورنا هذه قبل نعمة الكتب ورسالة العلم ؟

وماذا ينقص هذا الفلاح الجاهل من أسباب السعادة التي يستمتع بها بعض الناس الذين نالوا نصيبا كبيرا من التعليم والتثقيف؟ أليس يجد لقمة يتبلغ بها وتعينه على العمل فى نهاره وجرعة يذهب بها ظمأه وقطعة من القماش يتدثر بها ويستر بها نفسه؟ أليس له أب أو أم أو اخوة أو زوجة او ابناء يجلس اليهم حين يفرغ من عمله ويبادلهم الحب والحديث والبر والصفاء ، ويجد لديهم حسن السلوى عن عنائه وكفاحه وفقره ؟ وماذا يريد هو من المال او من المجد وهو لا يطمع في أكثر من الحصول على قوته وقوت اولاده وعلى ضمان راحتهم وتخفيف آلامهم وعلى أن يخرج المحصول مرضيا يمكنه من سداد اجاره للمالك او ديونه للدائن اومن سداد المصاريف التي بذلها وأنفقها عليه في أوقات الفراس والبذر ؟ هل هو يطمع في سعادة أكثر من الجلوس الى جماعة من اخوانه واصدقائه على قارعة طريق أو ضفة نهر أو شاطيء بحر أو على مصطبة أو فى « مندرة » أو على « جرن » الغلال أو في حانوت القرية يتبادلون الاحاديث المختلفة حول المحاصيل الزراعية وحول صنوف الوباء « والنداوي » التي تلحق بالزرع وبخاصة القطن؟

اليس عقله نقيا طاهرا أجوف من اضطراب العلم وتذبذب التفكير غارقا منغمسا بكلياته وجزئياته في بحر الجهالة الواسع الهادي، الحالم المطمئن الى مصيره ؟ أليس يعتقد ان العالم والجاهل معا سيتقابلان في الآخرة وسيتساويان معافي مرتبة واحدة وسيكون الكبير كالصغير والعظيم كالحقير والغني كالفقير ، فلن يأخذ العالم معه في قبره أكثر مما يأخذه صاحبه الجاهل معه في لحده ، ولن يكون شأن العظيم في العالم الأخروي أحسن حالا من شأن الحقير ، بل يكونون جميعا كأسنان المشط لا تفاوت ولا فروق ؟ ؟

واذا كانت الشمس تشرق من الغرب او تغرب في الشرق أو كانت الحروب خيرا أو شراً أو كان جحيم الحرية خيراً من فردوس العبودية او شراً منه، فماذا يعود عليه هو من كل ذلك وهل سيؤثر على نظام حياته أو بمعنى آخر هل سيؤثر على أسعار القطن وارتفاع السوق ؟ ليكن العالم كله ناراً حامية وحرباً زبونا ما دام سينتج من هذا ارتفاع الاسعار في مزروعاته ! ليتجادل العلماء كما يشاءون في نظرياتهم . وليفض الجدل الى الكفاح والى الحرب فلن يغنيه فتيلا ولن يشغل من عقله ومن نفسه وقتا للتفكير في هذا ما دام مطمئنا الى جهالته وراضيا بما يعلم في عزلته النائية ومصلاه الهادئة وقريته الساجية !

في هذه الجهالة السعيدة بطمأنينتها وقناعتها ، وكفافها ، القانعة بما تعرف الراضية بما هي فيه وبما شاءت لها الاقدار ، البعيدة عن

صخب الوجود وعن عراك العلم و كفاح الكتب ، يعيش فلاحنا المصري عاكفا على نفسه مستمتعا بهذه الراحة الكبرى ، راحة السر وبهدوء الضمير واطمئنان العقل ورضاء النفس ، قانعا بعيشه على كفافه وشظفه وعسره ، مؤمنا معتقدا بتلك الارادة الآلهية العليا المقدسة التي تدبر حياته وتنظم مصيره وتختار له مآله ، مفوضا أمره ومصيره اليها وحدها تحدث به كيف تشاء وما تريد ، منعزلا عن العالم وجهوده واضطرابه وعن العلم ونظرياته وتعقيده وتفكيره وكده وبحوثه ، راضيا لنفسه بتلك القطعة من الارض الضيقة يحصر فيها جهوده الجسمية ويعالج فيها أعماله المعيشية في هدوء وفي وداعه وفي ايمان قوي مكين لا دخل فيه ولا ضعف ، ايمان العبد الضعيف بآلهه القوي العظيم ، ايمان الفناء بالبقاء الخالد ، والجزء الأصغر بالكل الاعظم

في هذه الجهالة السعيدة إذن وفي هذا الكهف المتعبد الخاشع البعيد عن شهوات الناس ومطامح العباد يعيش فلاحنا سعيداً بجهالته على الرغم من شظف عيشه وبؤس حاله ، واذا كان العلم سعادة عند بعض الناس فالجهالة أيضا سعادة ونعيم عند البعض الآخر ، أو بعبارة أخرى اذا كان للعلم سعادته فللجهالة أيضا نعيمها ، وهذه الجهالة كما قلنا هي نعيم فلاحنا الذي يشعر به ويستعيض به عن سعادة العلم ونعيم النور ! ، ولعلنا بذلك قد كشفنا الى حد ما عن هذا العالم الباطني لفلاحنا بحسب ما يتفق والحق والواقع ، ولعلنا بذلك قد أرضينا ضميرنا الذي لا نعمل الا بأمره وعلى هداه !!!